

الباب الثالث

فرنسا والمغرب العربي

obeykandi.com

تمهيد

ظروف بلاد المغرب بفرنسا

إن ابتلاء سوريا ولبنان والحركة العربية فيها بفرنسا قد جاءت من حيث الفعل بعد ابتلاء المغرب العربي بها. ومن المؤسف أن الظروف التي ساعدت سوريا ولبنان والحركة العربية فيها على النجاة من بلائها لم تسنح بعد لهذا المغرب العزيز فظل إلى الآن يقاسي الشدائد المريرة منه .

ولقد بليت سوريا ولبنان ببلائها عقب يقظة الروح القومية والحركة العربية وما كان من رجالها من نشاط وما بذلوه من جهود وقدموه من ضحايا قبيل الحرب العالمية الأولى ؛ ثم نشبت هذه الحرب التي كانت مبادئ التحرير وحق الشعوب الضعيفة وحريتها والقضاء على الروح الاستعمارية وحق الفتح وسائل دعائية مهمة فيها . وقد قطع الحلفاء بلسان انكسار للعرب الذين كانوا في حكم الدولة العثمانية عهداً بالحرية والاستقلال واشتركوا بسببها في الحرب المذكورة إلى جانبهم ، فكان هذا بما قوى موقف العرب في سوريا ولبنان وساعدهم على النجاة بعد محنة شديدة استغرقت أكثر من ربع قرن مع ذلك ؛ فضلاً عن ما كان من ظروف دولية أخرى واتتهم أثناء الحرب العالمية الثانية على ما فصلناه في البابين الأولين من هذا الجزء ؛ هذا في حين أن المغرب العربي قد ابتلي بفرنسا في تواريخ سابقة تسر لها فيها توطيد قدمها فيه واختطاط سيرة من شأنها أن تجعن البلاء مزماً مستعصياً .

قصة المغرب الالهي

والحق إن قصة فرنسا في أقطار المغرب العربي أليمة جداً لأنها تقص ما قاسته هذه البلاد من فرنسا بأسلوب من شأنه أن تهلع له القلوب وتدمى له العيون وتتشعر منه الأبدان لفظاعته وقسوته بحيث يصح أن يقال إن ما قاسته سوريا ولبنان على شديد ما قاستاه ليس إلا ظلالاً لما قاساه ولا يزال يقاسيه ذلك الجزء الكبير من

الوطن العربي ؛ حتى إنه لا يكاد يصدق وقوعه في أشد أدوار الظلم والقسوة المهيمنة التي يمكن أن تكون انعدمت فيها معاني الرحمة والانسانية والعدل والمنطق؛ وبجيت يشير الاسفاق والرافة في أشد القلوب قسوة ، ويبعث أشد العجب من موت الضير العالمي وسكوته على هذه المآسي والجرائم التي تمثل منذ عشرات السنين على مسرح هذه البلاد الشهيدة التي هي في سره أوروبا بل وتكاد تكون في صميم نطاقها ، مما يعد وصمة عار لا تمحي عن جبين الحضارة الغربية ومثيلها ؛ وبجيت يزداد المرء يقيناً بخرافة تلازم مبادئ الحرية وحقوق الانسان لفرنسا وثورتها الكبرى تجاه أي بلد أو شعب آخر ، ويزداد نقمة على أولئك العرب الجغرافيين خاصة الذين لا يفتأون دون ما خجل يقررون هذا التلازم ويشيدون بإنسانية فرنسا وعدلها وحريتها ضللا وتضليلاً بينما يكون وجهها الاستعماري الكالح الكريه بارزاً كل البروز وفي أشنع مناظره في جزء كبير من وطنهم العربي منذ عشرات السنين . ويزيد في غصة هذه القصة وبشاعتها أن الأقطار المغربية كانت ممتعة باستقلالها آخذة بالسير في طريق الامم التي سبقتها في مضمار الحضارة فتصدت لها فرنسا بغياً وعدواناً بدافع الطمع والجشع والسلب والاستعمار ودون ما أي استفزاز ، واختطت فيها خطة رهيبة غايتها إلغاء المغرب العربي الاسلامي من الوجود إلغاء واستبداله بمغرب افرنسي نصراني ، وسبيلها الافقار والتجهيل والقضاء على المقومات الدينية والقومية والاجتماعية ، وإثارة النعرة الجنسية والتقاليد الجاهلية في البربر الذين اندمجوا في العروبة والاسلام منذ الآماد الطويلة وأصبحوا والعرب يؤلفون الشعب المغربي العربي الاسلامي لأجل التفريق والتوهين ؛ وعدتها الارهاب والتفكيك والتبشير والقذف بشناذ الآفاق من الافرنسيين العاطلين والمتبطلين الذين ضاقت بهم بلادهم وسبل عيشهم فيها واختصاصهم بخيرات البلاد وبركاتها وثروتها من أرض وزراعة وصناعة وتجارة ومعادن على حساب اهلها وإعدادهم ليكونوا اليد المعوانة على تلك الخطة الرهيبة .

واعمر الحق انه ليجب على السوريين والبنانيين خاصة أن يضاعفوا شكرهم لله عز وجل الذي أنقذهم من الكابوس الافرنسي الذي لو مد له الأجل وغفلت عنه الهمم ولم تبهته الظروف القاهرة لكانت مآسيه الرهيبه التي يرسف فيها المغرب العربي

مقدرة عليهم ؛ وقد رأوا بوادرها الكريمة ، وخاصة اذا ذكروا ما كان يفكر فيه
الافرنسيون من جلب عشرات الالف الافرنسية وتوطئتها بين ربوعهم على
ما جروا عليه هناك ؛ كما إنهم يجب عليهم أن يتبھروا كل الانتباه وأن يحذروا كل
الحذر ، لان تلك الروح الجشعة الشرهة المستعمرة ماتزال قائمة تحرق الأرم على سوريا
ولبنان وتترقب الفرص السانحة للكفرة عليها ، ولاتني في بث سمومها ودعايتها
بواسطة من اصطنعته منهم من المأجورين والضالين والمخدوعين .

كفاح المغرب ضد نكبة

ومن الحق ان يسجل أن المغرب العربي لم يقصر في مكافحة النكبة التي ابتلي بها،
بل جاهد وما يزال يجاهد أروع جهاد في سبيل حريته واستقلاله على ما كان من
كيدله في إضعاف قوته وسلب وسائله ، وتفوق عدوه ؛ وضحي بأعظم التضحيات،
وكتب صفحات من نور في تاريخ البطولة والجهاد الوطني . وإذا كانت المشرق
العربي لم يكن على صلة وثيقة بذلك فمرد هذا إلى ما ضربته فرنسا على المغرب من
سنان كثيف ، وما شغل هذا المشرق من شواغل ونكبات قبل الحرب العالمية
الأولى وبعدها .

على أن من فضل الله على الحركة العربية أن التقصير المتبادل قد انتهى بما كان
من النقاء المغرب والمشرق أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها في ميدان واحد ،
وتواصلها تواصلًا من شأنه أن يشد من أسر هذه الحركة وحبوبتها ، ويساعد على
تحقيق أهدافها عاجلاً أو آجلاً على كل حال ؛ ولا سيما ان الروح في العالم كله آخذة
بالتغير، وإنها ضائعة حتماً بفكرة التسلط على الشعوب الضعيفة واستعبادها وحرمانها
من حريتها وحقها في الحياة الكريمة المستقلة .

الفصل الأول

فرنسا والجزائر

- ١ -

عالم الجزائر قبل التكمية

إن أول قطر ابتلي بفرنسا وصار الجسر الذي امتد عدوانها عليه الى تونس شرقاً ومراكش غرباً هو القطر الجزائري .

ولقد استولى الاسطول العثماني في أواسط القرن السادس عشر على هذا القطر بشيء من اليسر لما يجمع بين سكانه والدولة العثمانية من وحدة الدين ورابطة الخلافة الاسلامية العامة ، ولم يلبث أن قامت فيه حكومة تركية ارتبطت بالدولة المذكورة بروباط خفيف من التبعية نظراً للبعد بينها وبين العاصمة وغدا مع الزمن إسمياً وفي نطاق شمول الخلافة التي تنسم بها هذه الدولة .

وهكذا كانت الجزائر مستقلة استقلالاً تاماً ، وكان رؤساء الدولة الذين يتلقبون بـ « الداوي » يمتون الى العنصر التركي الذي استعرب وتأقلم ، وكان لها اسطول قوي بلغت سفنه المسلحة بأربعين مدفعاً (٧٢) والمسلحة بعشرين مدفعاً فما دون (١٤٠) ، وكان عدد جيش الاسطول ثلاثين الفاً ، وكل هذا قبل الثورة الافرنسية أى في أواسط القرن الثامن عشر ، وكانت للدولة بقوة هذا الاسطول صولة في البحر الابيض عادت عليها وعلى رعاياها بالثورات الطائفة .

وقد كانت الجزائر بخيراتها وثروتها وموقعها تحرك مطامع الدول الأوروبية البحرية ، وقد تحرش بها أكثر من دولة وأكثر من مرة فلم تنل منها منالاً .

ولقد انكسر الاسطول الاسباني مرة أمامها أشنع كسرة وغنم الجزائريون كل ما أنت الحملة الاسبانية الغازية به من سلاح وعتاد ومؤن ، وأعاد الاسبان الكرة فلقوا نفس المصير . ولقد قذفت أساطيل الدول الأوروبية مدينة الجزائر أكثر من مرة دون جدوى ، حيث كانت من أعظم مدن البحر المتوسط حصانة ان لم

تكن أحصنها ، وفيها من المدافع الضخمة ما يفوق في رمية وقوته مدافع تلك الاساطيل .

وفي إبان ثورة فرنسا الكبرى وتألب الدول الأوروبية عليها مدت الجزائر يد العون اليها بالتموين ، حيث سمحت لها بشراء فحمها وأقرضتها بعض المال بدون فائدة برغم مساعي الانكليز في صدها عن ذلك ، كما بادرت الى امدادها بما امكنا من مواد ووسائل نقل ومواش ، مما جعل نابليون أيام عهد قنصلية يزوجي شكر فرنسا الحار اليها ، وفي سنة ١٧٩٥ اعتدت سفينة اسبانية على سفينة افرنسية وأسرتها على مقربة من الجزائر فسير الداى بعض سفته وفك أسر السفينة الافرنسية واسترد ما سلبه الاسبان منها . ولقد كانت الصلات ودبة بين فرنسا والجزائر بحيث كان بعض رعايا هذه أيضاً يمدون يد المساعدة اتي تلك إبان محنتها . ومن ذلك ما أقرضه جزائري يهودي لفرنسا من قروض عديدة بلغت عدة ملايين اشترت بها فرنسا القمح والمواد الغذائية الأخرى وكان ذلك بتشجيع الداى وكفالته ، وقد استغلت فرنسا هذه الصلات الودية فأنشأت مراكز تجارية في بعض الانحاء الساحلية كانت فيما بعد نقطة ارتكاز للبغي والعدوان !

- ٢ -

النسبة وظروفها العروانية

ولقد عاملت فرنسا الجزائر كما يعامل الضيف اللثيم مضيفه حيث ثار شرهما وطمعها فيها بدلا من شكرها والاعتراف بجميلها . فلم ينته دور امبراطورية نابليون ، ويستأنف دور البوربونيين ثانية وتستويح فرنسا من شدائد الهنة التي انتابتها خلال اربعين عاماً حتى أخذت تبيت الغدر للجزائر لتستولي على ثرواتها وخيراتها وتكون لها مستعمرة ومستغلا ، فساحت سراً بعض المراكز التجارية التي انشأتها ، واستسححت فرصة انشغال بعض أقسام الأسطول الجزائري في الحرب العثمانية اليونانية التي استمدت الدواة العون فيها من الجزائر كما استمدته من محمد علي الكبير والي مصر ، فأصدرت تعليماتها لقنصلها بخلق فرصة مناسبة للعمل

وفي نيسان عام ١٨٢٧ خاطب الداى القنصل بلهجة حادة محتجاً على عدم اجابة حكومته على بعض مطالبه ورسائله فأجابته القنصل بإجابة جارحة أثارت غضبه وجعلته يضرب وجه القنصل بروحته ويطرده من حضرته . فسارعت فرنسا الى إنذار الداى باعتذار لا يمكن ان يقبله فأعلنت عليه الحرب والحصار ، وأخذت تعد حملة كبيرة للغزو . وكانت السفن الجزائرية التي تحارب في مياه اليونان قد تحطمت مع ما تحطم من الاسطولين العثماني والمصري في واقعة نافارين ، فأضعفها ذلك أمام الحملة القوية التي أعدتها فرنسا وسيرتها في صيف عام ١٨٣٠ .

وكانت هذه الحملة مؤلفة من اسطول حربي عدد سفنه (١٠٣) مجهزة بنحو ثلاثة آلاف مدفع ، ومن جيش مقاتل عدته اربعون الفا ، وأسطول تجاري يحمل المؤن والعتاد مؤلف من نحو (٤٠٠) سفينة . وأنزل الافرنسيون قواهم في احدى النقاط الساحلية التي تبعد قليلا عن الجزائر وتحصنوا فيها وكانوا قد أعدوها لمثل هذه المناسبة من قبل .

ومن الجدير بالذكر أن الملك شارل العاشر ودع الحملة بخطبة صليبية دلت على الروح التي كانت تحفز فرنسا الى البغي جاء فيها فيما جاء « ان العمل الذي ستقوم به الحملة ترضية للشرف الافرنسي سيكون بمساعدة العلى القدير لفائدة المسيحية كلها » وقد كان مثل هذه الروح من جملة الحوافز ونقاط الارتكاز الاستغلالية في صلة فرنسا بلبنان وسوريا ومطامعها فيها على ما ذكرناه في البابين السابقين ...

نجاح الغزوة الافرنسية ^س _س فرينج

ولقد ظن الداى ان نزول الافرنسيين في النقطة التي نزلوا فيها يبسر له حصارهم وإبادتهم وكان رائقاً من قدرته على ذلك بما استطاع أن يجمعه من جموع فاقت بعددها جموع العدو كثيراً . ودارت رحى معركة عنيفة في تاريخ ١٩ حزيران ١٨٣٠ كادت الدائرة تدور على الافرنسيين فعلا ، غير أن تفوق القيادة الافرنسية على القيادة الجزائرية ضيع على الجزائريين فرصة الموقف الذي لم يلبث أن انقلب ضدهم ، فاستطاع الافرنسيون أن يستولوا على المعسكر وما فيه وأن يحطموا خط الدفاع

الأول ، وأن يتقدموا نحو العاصمة ومحاصروا قلعتها وبضيقوا الحناق عليها بالرغم من المحاولات التي حاولها الجزائريون للكثرة . ولقد دافعوا عن القلعة حتى نفذ ما عندهم من عتاد وهناك القسم الأكبر من المدافعين ؛ وحينئذ أشعلوا النار في مخزن البارود فانفجر واندمج البرج حتى لا يستولي عليه الافرنسيون سليماً ، ثم تخرج الموقف فطلب الأهليون من الداي مفاوضة الافرنسيين على الصلح فأبى هؤلاء إلا الاستسلام المطلق لان الغزوة لم تكن تهدف الى ما تهدف اليه حرب بين دولتين وإنما كانت تهدف الى سلب واستعمار ، فتقدم بعض أعيان المدينة موافقين على تسليم العاصمة وانتهاء حكم الدولة الحسينية (نسبة للداي حسين) .

معاهدة التسليم

وعقدت معاهدة بذلك كان من نصوصها تخيير الداي في مغادرة البلاد بأمواله أو البقاء فيها في حراسة فرنسا ، والتعهد باحترام حرية الجزائريين الدينية والمدنية وعدم التعرض لأموالهم وتجارتهم وصناعاتهم وبالرغم من ذلك فان الافرنسيين لم يتورعوا حينما دخلوا العاصمة من أعمال السلب والنهب وانتهاك الحرمات مما اضطر كثيراً من السكان الى مغادرة المدينة والفرار الى داخل البلاد . ولقد وجد الافرنسيون في خزانة الدولة ومخازنها نحو خمسة وعشرين مليوناً من الفرنكات ذهباً وأربعة وعشرين مليوناً فضة وما قيمته سبعة ملايين من السلع فاستولوا عليها غنيمة باودة .

وقد غادر الداي بلاده مع أسرته وحاشيته الى ايطاليا ومن هنا أخذ يتصل بأنصاره للانقضاض على الغزاة وقام فعلاً ببعض المحاولات أكثر من مرة ولكنه أخفق فاضطر الى نفض يده والانتقال الى الاسكندرية حيث استقر فيها الى أن مات عام ١٨٣٨ .

- ٣ -

التصرفات الباغية أثر الاستسلام

ولقد كان تصرف الغزاة في حملتهم الباغية سيئاً كل السوء وحشياً كل الوحشية لم يروعوا فيه عهداً ولا ذمة ولا شرفاً ، ولم يستشعروا فيه بأي عاطفة من عواطف

الرحمة والبرافة والانسانية والدين بما كان مثار دهشة ونقد من قبل لجنة عينها الملك عقب احتلال العاصمة أي في تموز عام ١٨٣٣ لتفقد الاحوال وتنوير الحكومة في البلاد المفتوحة . فقد احتوى تقرير هذه اللجنة فضائح يندى لها الجبين ، ومظالم تقشعر لها الجلود لم يكن يستهدف بها إلا الارهاب والاختضاع والسلب ، ولم يكن لها من موجب ، لأن البلاد قد استسلمت للغزاة حسب طلبهم ووفقاً لمعاهدة وعدوا بها برعاية تقاليد اهلها وحقوقهم . وهذه مقاطع مما احتواه التقرير (١) :

لو يقف الانسان لحظة متأملاً الطريقة التي عامل بها الاحتلال سكان البلاد لرأى أن سيره لم يكن مخالفاً للعدالة فقط بل كان يخالف العقل ايضاً ، حيث أننا على حساب امتسلام شريف وعلى حساب أبسط حقوق الشعوب الطبيعية قد تجاهلنا كل المصالح فلم نراع حرمة العادات والأرواح ، وأضفنا الى ملكية الدولة أملاك المؤسسات الدينية وصادرنا املاك طبقة من السكان رعدناها باحترام حقوقها واستولينا بالظلم والضغط والجور على الأملاك الخاصة الشخصية دون أي مقابل ثم أجبرنا المالكين الذين جردناهم بتلك الطريقة على دفع نفقات تدمير منازلهم فيها بل نفقات تدمير مسجدهم ! ولقد أرسلنا الى ساحات التعذيب والتنكيل والاعدام لمجرد الشك رجلاً لم تثبت إدانتهم ولم نجر محاكمتهم ، وقتلنا رجلاً يحملون جوازات المرور ، وذبحنا جماعات من السكان بصورة إجماعية لمجرد الشك ثم ظهرت براءتهم ، وقدمنا للمحاكم رجلاً مشهورين بسمعتهم الطيبة في البلاد لأن شجاعتهم جعلتهم يأتون الينا ويقفون امام غطرستنا متوسلين لانقاذ مواطنيهم المساكين . وقد وجد منا قضاة لم يتورعوا عن محاكمتهم ورجال لم يجمعوا عن تنفيذ حكم الاعدام فيهم . ولقد ألقينا في غياهب السجون الانفرادية المظلمة رؤساء القبائل بالرغم مما قدمته قبائلهم لنا من ملاحية ومؤث . لقد أطلقنا على الحيانة والغدر اسم المفاوضات وجعلنا منها كميناً للغدر والتقتيل . وبكلمة موجزة لقد تجاوزنا بربرية البرابرة الذين جئنا لتدبيرهم ثم ظللنا نشكو إخفاقنا فيهم . »

ولقد أثار هذا التصرف نائباً افرنسياً حراً اسمه دي شاد فوقف في مجلس النواب الافرنسي في نيسان عام ١٨٣٤ يندد به ويذكر بعض مشاهدته وقد قال فيما قال : لقد هدمنا في الجزائر تسعمئة بيت دون اتخاذ أي إجراء ودفع أي

(١) من كتاب القضية الجزائرية لدوربان و. م لوبف

تعريض واستولينا على سنين مسجداً وهدمنا منها عشرة وحوّلنا بعضها الى كنائس
ودسنا المقابر وبعثنا الرفات في بلد شديد التمسك بدينه. ولقد كانت مدينة الجزائر
قبل الاحتلال محاطة بالحدائق والقصور الجميلة الفخمة وكانت ضواحيها تماثل ضواحي
مرسيليا في بهجة المناظر ، ولكن كل ذلك قد زال بعد أن اجتاحت حيث خربت
سواقيها وقنواتها ودمرت البيوت والقصور واتخذت سقفا حطباً واقتلعت الأشجار
وجعلت وقوداً ..

ولقد احتوى تقرير مفصل لقتل افرنسي وصفاً مروعاً لبعض ما كان في مذبحه
أوقعها جيش الاحتلال في نيسان عام ١٨٣٢ في منطقة الولاية لجرد شكه في
اختطاف افراد ينتسبون الى قبيلة موالية حيث قال إن الحملة فاجأت القبيلة عند
بزوغ الشمس فدبجت كل افرادها دون أن يستطيع أي منهم دفاعاً وقضت على
كل حي دون تمييز بين شاب وشيخ وامرأة ورجل وعاد الجنود حاملين رؤوس
الضحايا على رماحهم . أما الأغنام التي وجدوها في ساحة المأساة فقد بيعت لقتل
الدانيارك ، وأما بقية الغنيمية وهي مسلوبات المذبوحين فقد عرضت للبيع في سوق
عام حيث تشاهد أساور النساء في المعاصم المبتورة التي ظلت الأكف الدامية عالقة
بها وحيث تشاهد أقراط النساء وبقايا اللحم متدلية منها. وبعد توزيع حصيلة السلب
بين الذابحين صدر بلاغ يومي يوم ٨ نيسان ١٨٣٢ يبارك هذا العار حيث يعرب عن
مدى الرضا البالغ الذي شعر به الجنرال إزاء الحزم والكفاءة التي أظهرها جنوده
البواسل ..

- ٤ -

مقاومة أهل البوار

على أن أهل القطر لم يستسلموا باستسلام العاصمة ، وازداد نفورهم من التصرفات
الوحشية التي أخذت انبصارها الرهيبة تنتشر فتملاً القلوب رعباً ، وأخذت كل
ناحية من أنحاء القطر تستعد للدفاع وتحصن مواقعها وتنظم وسائل مقاومتها، غير أنها
لم تتحد تحت قيادة واحدة. فكان هذا من أسباب إخفاقها حيث تمكن الافرنسيون
من القضاء على مقاومة النواحي واحدة بعد اخرى بالمكر والفساد والقوة الغاشمة معاً.

مهراج الامير عبد القادر

وكان أهم الحركات النضالية ضد الافرنسيين حركة الامير عبد القادر . فقد اجتمع رؤساء القبائل في الأنحاء الغربية فبايعوه بيعة شرعية بالأمانة وعاهدوه على السمع والطاعة وكان ذلك عام ١٨٣٢ ، فأنشأ دولة في هذه الأنحاء وأخذ يستعد للنضال ؛ وقد جنح القائد الافرنسي الى مسالته ريثا يتمكن من الأنحاء الاخرى فاعترف بأمارته . ولقد أهاج هذا باريس وحملها على استبدال القائد وزودت الجديد بالمدد والأمر المحتم بالقضاء على دولة الامير القبية ، غير أن الحملة فشلت فشلاً ذريعاً وانتصر الامير عليها وأوقع فيها جسيم الخسائر، فسيرت عليه حملة اخرى نجحت في احتلال عاصمة الامير « المعسكر » وإحدى مدن أمارته الكبرى « تلمسان » . وكان الامير جنح الى حرب الكر والفر دون معركة كبيرة ، وظل كذلك يزعج الافرنسيين الى أن اضطروا الى التعاهد معه عام ١٨٣٧ والاعتراف بأمارته في مقاطعة وهران مقابل اعترافه بسلطتهم على مقاطعة الجزائر وغيرها مما دخل في حوزتهم . وسنحت للامير بذلك فترة سلم تفرغ فيها لتنظيم دولته وتدريب جنده والاستعداد للطوارئ . وكان الافرنسيون مشغولين في هذه الفترة في إخضاع المقاطعات التي لم تكن قد خضعت لهم بعد .

نهب الامير

فلما تم لهم ذلك التفتوا الى الامير ليصفوا الحساب معه ، وأخذت تدور بين الفريقين حروب ومعارك عديدة ، والتزم الامير طريقة الكر والفر وعمد الافرنسيون الى الدس والاغراء ونجحوا في تخذيل بعض القبائل عنه ، وحاول الامير ان يجد في الارض المراكشية ملجأ للاستجمام والتنظيم فأنذر الافرنسيون سلطانها فاضطر هذا الى منع الامير من اتخاذ بلاده قاعدة لحركاته مع الالم والحسرة ، ومع كل هذا وبالرغم من تضيق الافرنسيين الحناق عليه واستيلائهم على مخيماته وأسرم بعض

أسرته وعداداً كبيراً من خالص انصاره ومصادرهم لأمواله ظل بصول ويجول ويكر ويقر حتى انتهكت منه القوى وفقد القدرة على الاستمرار ولم يبق له مناص فاستسلم عام ١٨٤٧ حيث بقي في أسر فرنسا الى عام ١٨٥٢ ، ثم غادرها الى البلاد العثمانية واستقر في دمشق حيث توفي فيها .

وعبيد الافرنسيين في سبائك حرب الامير

ولقد كان الجنرال سان أرنود احد قواد الحملات الافرنسية يبعث لأخ له في فرنسا رسائل خلال سنتي ١٨٣٨ - ١٨٥١ احتوى بعضها مشاهد عديدة لما كانت من تصرف هذه الحملات اثناء حروبها مع الامير والمقاطعات التي لم ترد أن تضع رقابها تحت أقدام الغزاة تدل على أن ذلك التصرف الوحشي الرهيب الذي وقع في مدينة الجزائر وضواحيها اثناء الحملة الأولى وعقبها قد ظل مستمراً في هذه الحملات بنفس الروح والهدف وهما الارهاب والسلب ودون أن يستشعر في ذلك بأي عاطفة من عواطف الانسانية والعرف والرحمة والشرف . فقد جاء في رسالة له بتاريخ ٧ ماوس ١٨٤١ بعد غزو مدينة قسطنطينة « إن الحرب لم تبق حياً لأننا لا نأسر أسرى . ولقد بدأ الجنود السلب ثم تبعهم فيه الضباط وانتهى اكبر سهم من السلوبات والغنائم الى ايدي القائمين على الجيش وضباط قيادته العليا وهو ما يحدث دائماً. اننا ندمر كل المدن ونجتاح كل املاك الامير. وسوف يحد الجيش الافرنسي في كل مكان ويبيده اللهب . وفي رسالة بتاريخ ٥ نيسان ١٨٤٢ : نحن الآن في جهات مليله وسرشال نحرق كل الخيام وكل القرى وندمر كل المغاور.. وفي رسالة في ٧ نيسان ١٨٤٢ : ان بلاد بني نصر جميلة جداً وهي أغنى بلاد رأيتها في أفريقيا الشمالية . لقد حرقناها كلها ودمرناها تدميراً . وفي رسالة بتاريخ ٥ مايس ١٨٤٢ : اننا قلما ندخل في معارك ونحن دائبون على نهب المساكن وتدميرها . وفي رسالة بتاريخ ٥ تشرين الاول ١٨٤٢ : ها أنا محاط من كل الجهات بالسنة النيران التي أشعلتها في القرى والبيوت بعد تفريغ ما فيها من مخزونات لقد جاء بعض اهلها الى الاستسلام فرفضت لاني اريد استسلاماً شاملاً وها أنا ذا مستمر في التعريق . وفي

سارلة ٢ تشرين الثاني ١٨٤٢ : ذهبت الى حيصو وأشعلت النار في كل مكان في طريقي وحرقت هذه القرية الجميلة . وكان الجنرال بيجو قد غادرنا قبل الى مثل مهتي . وكانت النيران تشتعل فوق الجبال و كنت اشاهد ألوفا من الجثث المتراصة على بعضها وهي تلقى في النار . انها جثث بني نصر التي حرقنا قراها ومساكنها . وفي بلاغ ارسله هذا الجنرال السفاح الى قائد فصيل له يقول : ان كل القبائل والسكان الذين لا يقبلون شروطنا يجب ان يسحقوا وان نستولي على كل اموالهم واملاكهم وأن يبادوا دون تمييز بين ذكر وانثى ، بل يجب ان لا ينبت النبات حيث وضع الجيش الافرنسي قدمه .. وفي احدى الرسائل التي أرسلها قائد هذا الفصيل الى جنراله : ان النساء والاطفال المحتفين وراء الاشجار كانوا يستسلمون لنا ونحن نقتل ونذبح واصوات المحتضرين والمولولين تختلط بأصوات الحيوانات التي تجار بجانبهم .. وفي رسالة له ثانية : اننا نبقى بعض النساء اللاتي نستولي عليهن ونبادل بعضهن بالحيول ونبيع بعضهن بالزاد .

وفي كتاب صيد الانسان الذي نشره الكونت دي هيس سيوت وردت مذكرة لصابط من ضباط الحملة جاء فيها: اننا حملنا بومبلاً مملوءاً بالآذان المصلومة من الاسرى ، وان عدد ما قضينا عليه منهم برصاص البنادق وطعنات الحراب أكثر من أن يحصى . ومن بين هؤلاء اشخاص دلونا على مخازن للقمح وجدناها فارغة . أما المدن والقرى التي احتلناها فقد كانت محروقة منهوبة . وقد اتلفت جميع مخزوناتنا كما دمر نخيلها وأشجار مشمشها . وقد تم هذا دون اطلاق رصاصة واحدة في معركة .

ولقد كان من الفظائع التي ارتكبت بأمر من الجنرال روفنو وبامر الجنرال روفنو إبادة قبيلتي شميلة وأولاد ربا خنقاً بالدخان بالرغم عن إعلانها الرغبة في الاستسلام .

خطة الاستعمار وهدم الكليات

وُمذلاحت للافرنسيين بشائر نجاح حركتهم الباغية في الجزائر اختطوا خطة جعل هذا القطر مستعمرة إفرنسية محرومة من أي لون من الوان الحكم الوطني . فأنشأوا إدارة مدنية لتنظيم مصالح الحكومة تحت إمرة القيادة العسكرية . وكان من أول ما فعلوه وضع اليد على املاك ضباط وجنود الجيش الجزائري وأراضيهم في السهول الحصبة المحيطة بمدينة الجزائر وإقطاعها للمستعمرين الأفرنسيين الذين صحبوا الحملة . ثم أخذوا يشجعون غيرهم على الهجرة إلى الجزائر ويقطعونهم الأراضي مجاناً أو يهبثون لهم شراءها بأبخس الأثمان . وكان شعارهم الفتح بالسيف والمحرث معاً وكان كل مستعمر يعد جندياً رديفاً فيسلم له السلاح والارض ووسائل العمل معاً ، فلم تنته مقاومة الأمير عبد القادر عام ١٨٤٧ حتى كان عدد المستعمرين مئة وعشرين ألفاً ! وقد سنت السلطات قوانين للخدمة الاجبارية توجب العمل الاجباري على الجزائريين في كل مشروع عام تعلقه ، وبالاجرة التي تقدرها تحت طائل العقوبة على الممتنعين ، واعتبرت العمل في مزارع المستعمرين من المشاريع العامة فيسرت بذلك لهؤلاء بالاضافة الى الأرض المجانية البد العاملة الرخيصة والتحكم بماجورهم تحكماً السادة بالعبيد .

التجارب الفاشلة والثورات

وفي السنة التالية لاستسلام الامير قررت الجمعية الوطنية الافرنسية إعتبار الجزائر أرضاً إفرنسية وتطبيق شرائع فرنسا عليها ولكنها لم تمنح الحقوق السياسية إلا للافرنسيين المستعمرين فقط ، وهو ما لا يمكن أن يدخل في منطق غير منطق الاستعمار الافرنسي الذي اختط خطته الرهيبة . فالجزائر إفرنسية ولكن الجزائريين غير إفرنسيين . وهذا يعني أن قرار الجمعية هو جعل الجزائر ملكاً للشعب الافرنسي أرضاً وسكاناً !! وقد ظل الجزائريون بعد هذا القرار تحت

كابوس الحكم العسكري الازهائي ، بما كان يثير القبائل حيناً بعد حين ، حيث تارت قبائل الجرجرة ثم قبائل أولاد سيدي الشيخ واستمرت ثورتهم مدة طويلة كلفت الافرنسيين كثيراً من الجهد والحسائر .

ولقد جنح الامبراطور نابوليون الثالث إلى التنفيس عن العرب وتهذبة خواطرهم أثناء ثورات القبائل العتيقة ، فأعلن أنه إمبراطور العرب كما هو امبراطور الافرنسيين ، وأن العرب يجب أن يلقوا العدل والمساواة أسوة بهؤلاء ، وأصدر بعض الاوامر والتشريعات التي تنسق مع هذا الاعلان وتؤدي إلى قيام حكومات محلية وطنية ، فنارت نائرة المستعمرين ورجال السلطة الافرنسية في الجزائر ، وأقاموا في سبيل تحقيق عزيمة الامبراطور العراقييل . وكان أن اشتبكت الحرب بين فرنسا والمانيا عام ١٨٧٠ وأن سقطت الامبراطورية وقام عهد الجمهورية الثانية ، ورأت هذه أن تكون الجزائر دار هجرة وإستعمار للنازحين عن الانزاس واللورين فكان في كل هذا القضاء على تلك البادرة التنفيسية ، وأخذ سيل المهاجرين يتدفق على الجزائر فيقطعون الاراضي ويمنحون ما يحتاجون اليه من وسائل العمل مجاناً ، حتى لقد أنشيء بين سني ١٨٧٥ - ١٨٨٠ نحو مئتي مستعمرة ، وتجاوز عدد المستعمرين عام ١٨٨١ نصف المليون .

قانون الازهابي

وفي سنة ١٨٨١ قامت ثورة جديدة في جنوب وهران وبلاد الزاب أزعجت الافرنسيين أتبما لإزعاج ، غير أنهم قمعوها في النهاية واستولوا على اراضي الثوار وأخذوا يمنعونها للمستعمرين الوافدين . ثم سنوا قانوناً جزائياً اراهيباً اسمه « الانديجين » أناطوا الحكم به بالحكام الاداريين بحيث يستطيع هؤلاء أن يحكموا بالسجن لمدة خمس سنين على كل من يتفوه بما لا يليق في حق فرنسا وحكومتها ، أو لا ينفذ أمر الحراسة أو يتهاون فيه ، أو يتمنع عن تسليم وسائل النقل والمونة والماء والوفود بالتسميرة التي يضعها الحكام ، أو يسهر عن قيد المواليد والوفيات ، أو لا يحترم القرارات الادارية في قسمة الارض المشاع ، أو يتأخر عن دفع الضرائب أو عن الاجابة الى دعوة المراقبين الافرنسيين ، أو يؤثري شخصاً من غير أهل

منطقته، أو يسكن في مكان غير مكان اقامته بدون إذن، أو لا يسجل قدومه ومغادرته
بلداً ليست بلده ، أو يزور مقاما من مقامات الاولياء أو يقيم له نذراً بدون إذن،
أو ينشئ مسجداً أو زاوية أو مدرسة بدون إذن ، أو لا يساعد السلطات الادارية
في أي شيء تطلبه منه الخ فكان هذا القانون سيقاً وصلتاً وكابوساً مفرعاً قاسى منه
العرب الشدائد والمحن وسيطر الافرنسيون في ظله على مختلف مرافق البلاد .

- ٦ -

الحكم المطرفي بعد الحكم العسكري

وفي اواخر القرن التاسع عشر انتهى عهد القيادة العسكرية بعد ان دام نحو
٦٠ عاماً ، وقام مقامه حكم مدني افرنسي ، وغدا اسم فرنسا الافريقية ، يطلق
على الجزائر ، وصار يمثلها في البرلمان نواب وشيوخ ينتخبهم المستعمرون فقط
استمراراً للجاري ، والقي ما بديء بإنشائه في عهد الامبراطورية الثالثة من حكومات
محلية ، وجعلت الجزائر ثلاث مناطق افرنسية ، وغدت الوزارة الافرنسية
مصدر الحكم والسلطات بطريق الوالي العام الذي يمثلها كما غدا التشريع الجزائري
يصدر عن البرلمان الافرنسي ، وظل اهل البلاد في منأى عن كل ما يتصل ببلادهم
من تمثيل وحكم وتشريع مع تسميتها بافريقية الافرنسية وغدوها منطقة افرنسية
وتطبيق الشرائع الافرنسية عليهم فيها .

وفي سنة ١٩٠١ أعلنت فرنسا فصل الدين عن الدولة فأدى هذا الى ضبط كافة
الارواق الاسلامية التي كانت تقوم بأود المساجد ورجال الدين والقضاء الاسلامي،
وادخلت ضمن املاك الدولة ، وانيطت ادارة المساجد والقضاء الشرعي بمصلحة
افرنسية ، وايبح منح الاراضي الواقفية للمستعمرين بأثمان بخسة جداً ولآجال
طويلة الأمد .

وعلى ان فرنسا عادت فرأت أن الفرق الشاسع والتباين الكبير بين سكان
فرنسا والجزائر وحالتها الاجتماعية والثقافية أشد ممن أن تسمح بحكم الجزائر
حكما افرنسيا بمائلا لفرنسا في التشريع والادارة .

نظام الدومينيون ومسخ

فقررت عام ١٩٠١ ان تجرب فيها نظام الدومينيون البريطاني ، فانشىء للجزائر برلمان محلي كما انشىء فيها مصالح وسلطات محلية متنوعة ، وجعل للحاكم الافرنسي العام مجلس خاص من سكان الجزائر الافرنسيين والعرب . غير ان التجربة كانت تقليداً مسيخاً لم تؤد الى نتيجة صالحة ، لان الافرنسيين لم يستطيعوا ان يعضوا فكرة التخفيف من السيطرة على كل شيء ، والتخلي عن شيء من الصلف ، او يفهموا حق شعب الجزائر في بلاده . وظل الوالي العام الافرنسي هو القابض على زمام الامور صغيرها وكبيرها ، ويتلقى الاوامر مباشرة من وزير الداخلية ، وظل مع هذا عدد غير يسير من دوائر الحكومة المهمة كالجيش والبحرية والمعارف والموازنة تابعة للوزارة الافرنسية رأساً، وظل اكثر الوظائف الحكومية المهم منها والثانوي في يد الافرنسيين ، ولم يكن لسكان الجزائر وخاصة العرب المسلمين الذين هم الاكثرية العظمى اي كيان واثرا ايجابيا في هذا النظام الذي كان مفروضاً أنه انشىء لهم ، وكانت غالبية المجلس الخاص والبرلمان المحلي اللذين اشرك فيها الجزائريون افرنسية مع اعتبار قراراته استشارية .

التجريد الاجباري

وفي عام ١٩١٢ فرضت فرنسا الجندية الاجبارية على المسلمين ، وكان القانون يقضي بخدمة الجزائري المسلم ضعف المدة التي يقضيها الافرنسي دون ان يكون بينها اي مساواة في المرتبات والمراتب والمعاملة ، فحمل هذا خاصة مع ما كان من اضطهاد وحرمان شديدين كثيراً من المسلمين على النزوح من وطنهم الى بلاد الشام وغيرها من البلاد الاسلامية .

- ٧ -

ونشبت الحرب العالمية الأولى فأعلنت الأحكام العسكرية في الجزائر وأصلت سيف الارهاب فوق الرؤوس أشدما كان قبلها على شدته وقد جند من الجزائريين

ربع مليون جندي ومئة الف عامل أرسلوا الى جبهات اوروبا ومعسكراتها ، وزيدت الضرائب وطرحت التكاليف الترابوية الباهظة على الأهلين وحظر عليهم الاجتماعات والتنقلات وحباسة السلاح ، وانشئت المحاكم العسكرية التي كانت تصدر الأحكام القاسية لأتفه الأسباب والتهم والخالفات .

ولقد كانت فرنسا الى هذا تغدق لهم الوعود وتبشرهم بجمابة سعيدة بعد النصر ؛ فلما تم لها ذلك وقد هلك منهم مئة الف كان كل ما فعلته لهم تخفيف أحكام ذلك القانون الارهابي الذي ذكرناه وبعض الضرائب ، وتوسيع نطاق ممارسة انتخاب المجالس البلدية والمحلية والسماح بتشكيل الجمعيات المحلية واهتمامها لشؤون الأهلين ، وتوسيع نطاق التعليم بعض الشيء ، مع الاحتفاظ بأساس بقاء الجزائر ضمن افرنسييتها المقررة . على أن الروح الاستعمارية الافرنسية جعلت هذه التعديلات التافهة بدون ثمرة مجدية وظلت حالة الحرمان والاضطهاد الشديدة هي القائمة المستمرة على أشد ما يكون من بغي وسوء .

صورة طالانت عليه الجزر الى سنة ١٩٣١

وبين يدينا كتاب لم يكتب للدعاية والتسوي . وقد طبع في الجزائر وهو موثق بالأرقام والاحصاءات والوقائع صدر عام ١٩٣١ أي بعد مرور مئة عام على ابتلاء هذا القطر بفرنسا وبعد اربع عشرة سنة من انتهاء الحرب العالمية التي أغدق الافرنسيون فيها الوعود للجزائريين يستطيع المرء ان يتبين منه ما كانت عليه حالة البغي والسوء والحرمان والبؤس التي ظل يرتكس فيها الجزائريون وهو كتاب تاريخ الجزائر للمدني . واليك مقتبسات من هذا الكتاب تصور الحالة السيئة الرهيبة التي كانت عليها الجزائر في عام صدوره .

التعليم

فالتعليم الذي ينفق عليه من ميزانية الجزائر نوعان واحد للمسلمين وآخر للأوروبيين . ونسبة الامية في المسلمين خمس وتسعون في المئة . وعدد الذين هم في مدارس الحكومة منهم ستون الفا بينما كان عدد المسلمين اذ ذاك اكثر من

سبعة ملايين وعدد الذين هم في سن الدراسة اكثر من مليون . وبعبارة ثانية ان نسبة الذين هم في هذه المدارس اقل من ست في المئة من الذين هم في سن التعليم مع ملاحظة ان هذا بعد ان وسعت السلطات نطاق التعليم بعض الشيء . وللقارىء ان يستنبط نسبة التعليم قبل هذا التوسيع المزعوم ! ومع ان مدارس المسلمين تسمى المدارس العربية فان حظ العربية والدين الاسلامي فيها ضئيل جداً ، ومناهجها افرنسية صرف . هذا في حين ان عدد الطلاب الاوروبيين في المدارس الحكومية الخاصة بهم (١٣٦٠٠٠) من عدد مجموعهم البالغ (٩١٣٠٠٠) وان نسبة الذين هم في المدارس منهم اكثر من ثمانين في المئة من مجموع الذين هم في سن التعليم . وفي الجزائر عدد غير قليل من المدارس الثانوية والمتوسطة والعالية ، ولكن جل مقاعدها مخصص لابناء الاوروبيين ونصيب المسلمين فيها ضئيل جداً ، وتعليم اللغة العربية والديانة الاسلامية لا يدخل في مناهج هذه المدارس .

وفي الجزائر جامعة تحتوي اربع كليات للطب والصيدلة والعلوم والآداب والحقوق ، وجل مقاعدها مخصص لابناء الاوروبيين وليس فيها من ابناء المسلمين الا (٧٥) طالباً .

ومست الحاجة إلى قضاء شرعيين فأنشئت مدرسة لتخريجهم ضيقة النطاق ضعيفة المنهج والروح ولم تكن تتسع لأكثر من مئة طالب .

وقد أنشئت بضع مدارس مهنية ابتدائية جاءت ضيقة النطاق ضيقة المنهج والروح كذلك ولم تأت بفائدة عملية ومثمرة .

ومع انه هناك عدداً من المدارس الابتدائية والثانوية للبنات إلا انها هي الأخرى تكاد تكون محتكرة للبنات الأوروبيات وحظ الفتاة الجزائرية فيها قليل جداً او يكاد ان يكون معدوماً .

وقد وضعت العراقل المتنوعة في وجه ابناء المسلمين الذين يرغبون في إرتياد مناهل العلم في فرنسا وغيرها ، فكان الذين يتيسر لهم التغلب على هذه العراقل أو التهرب منها يعدون على الاصابع .

هدف التعليم

وهدف التعليم الرسمي لأبناء المسلمين هو تنشئة أجيال متفرسة لا تعرف العروبة والاسلام . ويتحقق هذا الهدف بمن يخدمون الجندية منهم حيث يقضون مدة طويلة في أوساط إفرنسية . ويبذل المسلمون الذين هم شديدو التمسك بعروبيتهم وإسلامهم جهوداً عظيمة في مكافحة هذا الهدف مندفعين بقوة الغيرة على المقدسات والتقاليد والكيان بما يذشونونه من كتابتبع عربية ومدارس قرآنية مسجدية على شدة ادقاعهم وضعف تنظيمهم . وقلمنا ينالون مساعدات مالية من السلطات في هذا السبيل مع ان هذه السلطات تتصرف بأموال الأوقاف الاسلامية ، وكل ما هناك ان جامع الزيتونة الذي يشبه في نظامه جامع الازهر يبذل جهوداً عظيمة في حفظ العروبة والاسلام والكيان .

الحالة الصحية

والحالة الصحية عند المسلمين سيئة جداً . والفقر المدقع الذي ترتكس فيه غالبيتهم العظمى من أهل المدن والقرى وعمال المدن يحول بينهم وبين التطبيب والعلاج . ومن ثم فإن الامراض الحبيثة والوبائية تفتك فيهم فتكماً ذريعاً دون مبالاة من السلطات . وقد ذكر أحد الكتاب الافرنسيين أنه تقدم في مدينة الجزائر سنة ١٩٢٧ (١٨٦٠٧) شباب للجندرية منهم تلبية للدعوة فوجد أن (٨٢٦٨) منهم لا يصلحون للخدمة بسبب سوء حالتهم الصحية . وكذلك وجد من (٨٤٨٤) ممن دعوا إلى الخدمة في مدينتين أخريين (٣٤٤٦) لا يصلحون لها . واستدعت السلطة عام ١٩٢٣ في وهران (١٤٦٤٢) للخدمة فوجد بينهم (٥٤٤٦) لا يصلحون لها منهم (٢٦٧٣) بسبب ضعف البنية وانحطاط القوة و (١٦٥١) بسبب امراض العيون و (٢٥٣) بسبب السل و (٣٦٨) بسبب الزهري و (٢١٨) بسبب الحمى المزمنة و (٢٥٣) بسبب الانحلال الجسمي الناشء عن عدم كفاية التغذية . والمدن والأرقام المذكورة أمثلة يقاس عليها سائر الأماكن بطبيعة الحال . وقد كانت نسبة الوفيات في الاطفال عام ١٩٢٥ كما نشر في تقرير رسمي (٤٤) في الالف عند

الأوروبيين بينما كانت عند المسلمين (١٣٨) . ولقد انشأت السلطات (٩٧) مستوصفاً للأهالي وصفها كاتب إفرنسي بقوله انه لا يستطيع ان يصف حالتها اي قلم سوء بناء وقذارة وانعدام عناية وفقدان أبسط وسائل الاسعاف .

تنظيم سلب اراضي الجزائر

واراضي الجزائر الزراعية والحرجية تبلغ نحو واحد وعشرين مليون هكتار او اثنين وعشرة ملايين دونماً على تفاوت في الحُصْب والصلاح . وأملاك الدولة والبلديات منها نحو تسعة ملايين هكتار وأملاك الأهالي نحو ذلك . اما املاك المستعمرين فقد بلغت نحو مليونين ونصف هكتار منها نحو مليون وسبعمئة الف وزعت عليهم رسمياً باسم الاستعمار الرسمي بأثمان إسمية ولآجال طويلة . والباقي اشتروه من الاهالي بمساعدة السلطات وضغطها بالجنس الاثنان . وقيمة الهكتار الذي في يد المستعمر تقدر بخمسة وعشرين الف فرنك بينما قيمة الهكتار الذي في يد الاهلين لا تزيد عن ثلاثة آلاف فرنك مما يدل على ان ما في يد اولئك هو اجود الاراضي واخصبها واعمرها . وعلى هذا الحساب فإن قيمة اراضي المستعمرين اثنان وستون مليار فرنك بينما قيمة اراضي الاهالي التي هي ثلاثة أضعاف ونصف هذه مساحة سبعة وعشرون مليار . وعدد المستعمرين هو (٩١٣) الفاً . وقياساً على الماضي يمكن ان يقال ان قسماً كبيراً من اراضي الدولة والبلديات التي من ضمنها اراضي الاوقاف الاسلامية والتي صودر شيء كثير منها من الاهالي في مبادي الغزوة قد تسرب الى المستعمرين خلال المدة التي انقضت بين سنة صدور الكتاب الذي ذكر هذه الارقام وهي ١٩٣١ وبين سنة ١٩٥٠ (١) والتي ظلت قوافل المستعمرين مستمرة فيها بنحوصات حثيثة ، وان عدد المستعمرين قد تجاوز المليون والرابع ، وان ثروتهم الزراعية قد تضاعفت بينما ثروة الاهلين قد تضائلت ، وفقرهم قد اشتد كثيراً عن قبل .

(١) في خطاب اللواء نائب جزائري في مجلس النواب الافرنسي في ٢٠ آب ١٩٤٧ تصديق لذلك والخطاب منقول في مناسبة آتية من هذا الفصل

الفقر المرفوع

وقد ادى هذا الى ان أصبح أغلب سكان القرى والبراري عمالاً زراعيين عند المستعمرين بل وان اصبحت حالتهم شبيهة بحالة عبيد الارض في القرون الوسطى والاخيرة لا يكادون يحصلون على ما يسد الرمق ويسترو العورة . وتضع السلطات حتى العراقيين في وجه من يريد النزوح الى فرنسا للعمل فيها منهم لئلا يفقد المستعمرون اليد العاملة الرخيصة . وبما يجدر التنبيه عليه ان المستعمرين يعتمدون في اعمالهم الزراعية على رؤوس اموال متخمة نهبتها لهم المصارف والشركات والجمعيات التعاونية كما ان الآلات الحديثة تشغل حيزاً كبيراً في هذه الاعمال . ويكاد المسلمون أن يكونوا محرومين من كل ذلك . والسلطات في شغل عنهم بما أخذته على نفسها من تشجيع الاستعمار الأوروبي وترقيته وتوسيعه على حساب الضرائب التي تجبى منهم !

ومن أراضي الدولة والبلدية مساحات واسعة غابات ، غير أنها نعمة على الأوروبيين ونقمة على المسلمين ، حيث تهباً للأولين كل وسائل الاستثمار بينما يرهق الآخرون بالقرامات والمصادرات لأتفه الأسباب .

الكروم

وقد كاد المستعمرون يحتكرون زراعة الكروم وعصيرها ، حيث كانوا يملكون في سنة ١٩٣١ نحو مئتين وخمسين ألف هكتار ، ويستخرجون منها ما معدله عشرة ملايين هكتوليتراً من الخمر سنوياً بينما لم يكذبقى في يد المسلمين شيء من كروم العنب . اما كروم الزيتون فقد كان المستعمرون يملكون في تلك السنة نحو نصفها .

المعادن

وفي الجزائر معادن ومناجم كثيرة وغنية من فسفات وحديد وزنك ورصاص ونحاس وزئبق ونفط ورخام وفحم وجص . واستثمار هذه المعادن محتكر في يد

الأوروبيين . وقد كان عدد الامتيازات التي نالوها لغاية سنة ١٩٢٧ (١٢٧) وكانت قيمة ما أصدرته شركات الاحتكار من هذه المعادن في تلك السنة مئتي مليون . وقياساً على الماضي فما لاشك فيه ان استثمار الاوروبيين لمعادن الجزائر قد اتسع وان قيمة الانتاج والكسب قد تضاعفت اضعافاً مضاعفة وكل ما للمسلمين من ثروة بلاذهم المعدنية العظيمة هذه إستغلال بضعة آلاف عامل بالاجور البسيطة وبالتحكم الذي يشبه تحكم السادة بالعبيد .

الصناعة

كذلك الصناعة فان الاوروبيين قد انشأوا شركات ضخمة واسسوا مصانع عظيمة دعمتها منشآت ومصارف قوية فغدت الصناعات والمنشآت الآلية الكبيرة محتكرة في ايديهم تقريباً بحيث كان لهم في سنة ١٩٣١ (١٥٠) مطحنة كبرى و (٥٥) معبنة كبرى و (٥٠٠٠) معصرة زيت و (٥٠) معملا للدخان وثمانية معامل كونسروه على انواعها ومعملان للثقاب و (٥٤) معملا للدباغة و (٥٨) مصنعاً للبراميل و (١٥) معملا للاحذية و (٨١) معملا لصناعات متنوعة أخرى ! ولم يستطع المسلمون ان يجروا في هذا المضمار جرياً ذا بال لقلّة المال و كثرة العراقيل وكل ما لهم في هذه الحركة بضعة آلاف من العمال يعيشون على فتات المعامل الأوروبية المذكورة . وقد كانت لهم صناعات يدوية ناجحة فلم تول المزاحمة الأوروبية والسياسة الجمركية تشدد عليها حتى قضت عليها تقريباً .

التجارة

وتكاد التجارة تكون محتكرة أيضاً في يد الأوروبيين وليس للمسلمين فيها الا نصيب ضئيل . وما يصدر من الجزائر من خمور وحبوب ومجففات وحمضيات ودخان وجلد انما يصدر عن ايدي الأوروبيين والبيوتات التجارية الأوروبية ، التي تستولي على ما ينتجه المسلمون من غلات زراعية متنوعة بالاسعار البهضة وتتولى تصديرها . وقد فتحت ابواب الجزائر على مصراعها للسلع الافرنسية بنوع خاص

واستثنت تقريباً من الرسوم الجمركية ، واحتكرت استيرادها البيوتات التجارية الأوروبية فعدت الجزائر سوقاً عظيمة لهذه السلع محمية من المزاومة الأوروبية ومتحكمة في هذه السوق .

التجنس

ولقد فتح للجزائر باب التجنس الذي يسمح لهم بالتمتع بالحقوق الفرنسية . غير انه اشترط على من يريد التمتع به ان يتعامل بالقانون المدني الفرنسي في الأمور الشخصية والمدنية من نكاح وطلاق وميراث ووصية وهبة الخ دون القانون المدني الاسلامي . فكان هذا الشرط وظل حائلاً دون اشتراك المسلمين في الانتخابات البرلمانية الفرنسية والانتخابات المحلية المحول حقها للفرنسيين ، ودون انتفاع الموظفين المسلمين بالامتيازات الممنوحة لزملائهم الفرنسيين في المرتبات والدرجات والاجازات الخ ، ولم يستجب الى هذا الشرط الا فئة قليلة منهم . والمتبادر أن فرنسا قد هدفت في هذا الشرط الى هذه الغايات والاعتذار به عنها لأنها تعرف شدة تمسك الجزائريين بتقاليدهم الاسلامية ؛ وفي هذا ما فيه من المكر وسوء النية والروح العدوانية ، وهو مخالف للمنطق والعقل بل والحق الدولي . ولكن روح الاستعمار الفرنسية لم تكن لتعبأ بمثل هذا المثل .

وبالرغم عما يخسره المسلمون من هذا الموقف فانهم متشددون فيه كل التشدد . ويرون في الشرط انخلاعاً من ربة الاسلام والكيان العربي الجزائري كما هو كذلك حقيقة . ولقد غدا الذين قبلوا بهذا الشرط والذين ظلوا مع كل ما كان من تشويق واغراء أقلية ضئيلة كالطبقة المتبوذة بحيث لا يبصاهم المسلمون ولا يشتركون في تشييع جنازاتهم ولا يوافقون على دفنها في مقابرهم . ومن الطريف ان هذه الطبقة لم تستطع في الوقت نفسه ان تندمج في المجتمع الفرنسي أيضاً حيث ظل الفرنسيون ينظرون اليهم نظراً الى الافريقي المنحط عنهم جنساً ومركزاً . وحيث ظل هؤلاء يتمتعون بامتيازات عديدة لا يتمتع بها اولئك .

نظام الحكم والادارة

ولقد قلنا في مناسبة سابقة ان تجربة نظام الديمينيون جاءت تقليداً مسيخاً وأن الروح الافرنسية المتسلطة ظلت هي السائدة في النظام الجديد ، كما ظل الوالي العام من جهة والحكومة الافرنسية من جهة هما أصعاب الهيمنة على كل صغيرة وكبيرة فيه . ونقتبس هنا من كتاب المدني بعض صور لما كان في الجزائر سنة ١٩٣١ من مجالس تمثل ما قلناه وتصور مدى ما كان من تسلط الافرنسيين في هذه المجالس التي هدر فيها حقوق المسلمين الذين هم اهل البلاد .

فقد كان للوالي العام مجلس حكومة بمثابة مجلس وزراء . غير ان اعضاء هذا المجلس هم رؤساء المصالح العامة الافرنسيون من جهة وقراراتهم استشارية بالنسبة للوالي الذي هو صاحب الهيمنة العامة الشاملة من جهة اخرى . وليس في هذا المجلس احد من المسلمين .

وهناك ثلاث تشكيلات ادارية او بلدية . . احدهما « البلديات العامة » ومهمتها النظر في كل ما يتصل بالشؤون الصحية والتعليمية والتنظيمية ورؤساء هذه البلديات افرنسيون يعينهم الوالي . ويساعدهم مجالس منتخبة مؤلفة من الافرنسيين والمسلمين ولكن عددهؤلاء لا يجوز ان يزيد عن الثلث! وحق الانتخاب لغير الافرنسيين والمتجنسين مقيد بقيود تجعل ممارسة هذا الحق محدودة جداً . ومن غرائب هذه القيود ان المسلمين يصح ان ينتخبوا افرنسيين ومتجنسين ولكن هؤلاء لا يجوز لهم أن ينتخبوا مسلمين جزائريين . . وثانية التشكيلات هي « البلديات المتزجة » وهي اشبه بحكومات ادارية وتشمل صلاحيتها المدن وغير المدنت . ورؤساؤها افرنسيون كذلك وتابعون للوالي وأساء، ويسمون مديرين او متصرفين ولهم دبذبة ومظاهر عسكرية . وسلطتهم تكاد تكون غير محدودة، ويكاد الواحد منهم يكون الحاكم بأمره . ولهم سلطات قضائية ادارية زجرية وخاصة بموجب القانون الارهابي الذي ذكرناه في مناسبة سابقة . ويساعد المدير لجنة اغلب اعضاءها افرنسيون . . والثالثة هي « البلديات الاهلية » وهي خاصة بالأغواء الجنوبية التي يعيش سكانها حياة القبيلة . وتكاد تكون هذه التشكيلة حكومة عسكرية، حيث يرأسها قائد الموقع الافرنسي ويساعده لجنة اغلب اعضاءها من الضباط الافرنسيين .

المجالس

وهناك مجالس تسمى المجالس العمومية في مراكز المديرية ذات صبغة تمثيلية مهمتها النظر في شؤون المديرية المحلية . وعدد النواب المسلمين فيها مقيد بالربع أما الارباع الثلاثة الاخرى فهم افرنسيون ينتخبهم الافرنسيون . وللمسلمين أن ينتخبوا إفرنسيين ولا يصح العكس .

وهناك مجلس اسمه مجلس النيابة العامة وهو بمثابة البرلمان الجزائري وله صلاحيات كبيرة في شؤون الضرائب والميزانية مع القيد ان قراراته استشارية . ويتألف من (٦٩) عضواً (٤٨) منهم افرنسيون نصفهم يمثلون المستعمرين ونصفهم يمثلون اصحاب المصانع والحرف والشركات . اما المسلمون فعددهم واحد وعشرون

وهناك مجلس آخر يسمى المجلس الاعلى وهو المختص بالنظر في القرارات التي يصدرها مجلس النيابة المالية مع القيد ان قراراته استشارية ايضاً، وعدد اعضائه ستون (٢٩) منهم يعينهم الوالي وهم اعضاء مجلس الحكومة وقواد الجيش واربعة من كبار الموظفين وثلاثة من الاهالي و (٣١) منهم يمثلون مجلس النيابة المالية ومجالس المديرية العمومية . ومن مجموع اعضاء هذا المجلس عشرة مسلمون فقط، سبعة منهم في مجالس المديرية وثلاثة يعينهم الوالي !

وفي الجزائر سبع غرف تجارية . وأعضاؤها ينتخبون من التجار المسجلين . ومع ذلك ففي نظامها قيد ينص على عدم تجاوز عدد الناخبين والمنخبين المسلمين عشر العدد العام لكل من الطبقتين ! وهناك غرف زراعية ، وعدد اعضاء كل غرفة (٢٢) منهم (١٦) افرنسياً ينتخبون انتخاباً من قبل المستعمرين وستة مسلمون يعينهم الوالي تعييناً !

الوظائف

ولقد قلنا ان الوظائف المهمة والثانوية محصورة في الافرنسيين . وفي كتاب المدني اسماء الوظائف التي كان يجرم على الجزائري المسلم توليتها والتي تسمى وظائف

سلطة نسردها في ما يلي كمصداق لما قلناه ولتصوير حالة الحرمان والاحتقار التي يرتكس فيها اهل هذا القطر المذكور :

كاتب عام بالولاية - نائب مستشار حكومة - مدير عام - متصرف - نائب متصرف
مستشار متصرف - كاتب عام متصرف - مراقب او مدير او مدير ثان بلدية
بمتزجة - رئيس اول بدائرة الاستئناف رئيس غرفة عليا - مستشار عدلي -
مدعي عام - وكيل حق عام - نائب مدعي عام - نائب وكيل حق عام -
- رئيس محكمة ابتدائية - نائب رئيس محكمة ابتدائية - قاضي
تحقيق - حاكم - نائب - قاضي صلح - نائب قاضي صلح - مدير جامعة علمية -
مراقب علمي - محافظ مياه - مراقب مياه - محافظ او مراقب غابات - قابض
عام او خاص بالحزينة الجزائرية مدير ديوان - مراقب ديوان - مدير تسجيل
املاك الدولة ومراقب تسجيل - مدير دمنه - مدير ادارة الضرائب - مراقب
ادارة الضرائب - مراقب ادارة عمال - مدير ادارة بريد - مراقب ادارة بريد -
مفوض بوليس - مراقب بوليس في السكك الحديدية والمراسي ..

والذي يجري العمل عليه هو انه لا يمكن للمسلم الجزائري ان يتوظف في
الادارة الجزائرية الا قاضيا شرعيا او ترجمانا او نقرأ او شاويشا في البوليس او
مراسلا او ساعبا او مدرسا او كاتباً صغيراً .. وهناك عدد كبير من الافرنسيين
يتولون هذه الوظائف التافهة أيضا. والمرتب الذي يتناوله الموظف الافرنسي اكبر من
المرتب الذي يتناوله الموظف المسلم من نفس رتبته فضلا عن زيادة ٣٣ في المئة
باسم علاوة الاغتراب !

القضاء

والقضاء في الجزائر منظم وفق الانظمة الافرنسية كما أن القوازين النافذة هي
قوانين افرنسية ، ولغة المحاكم هي اللغة الافرنسية . وهناك قضاء شرعي اسلامي
للنظر في شؤون المسلمين الشخصية ، وكان ذا اختصاصات واسعة ظلت السلطات
تنقص من أطرافها حتى غدت بقانون اصدرته عام ١٨٨٦ ضيقة جداً تكاد تصح

عدما حيث خولت بما كم الصلح الافرنسية النظر في جل الشؤون التي كانت بنظر
فيها بما يتصل بالامور الشخصية والمدنية .

الباسة البربرية والتبشير

ولقد سارت السلطات الافرنسية على خطة التفريق بين العرب والبربر منذ
عهد مبكر فاصدوت في عام ١٨٥٩ قانوناً يخرج القبائل البربرية من نطاق القضاء
الشرعي الاسلامي ويجعلها تابعة لقضاء خاص يستمد من العرف الجاهلي رغم دينونه
هذه القبائل بالاسلام وخضوعها لقضائه الشرعي أحقاباً طويلة ، ويقوم به هيئات
من القبائل عرفت باسم هيئات الجماعة ، هادفة بذلك الى اثاره النعرة العنصرية في
البربر وسلخهم عن الاسلام وتبشيرهم لنشاط التبشير المسيحي ، الذي شجعتة تشجيعاً
عظيماً حتى انتشرت مراكزه في المدن والبوادي بكثرة كبيرة . وكان مما يعمد
اليه المبشرون تلقين البربر أنهم أوروبيون مسيحيون في اصولهم ، وان العروبة
والاسلام اجنبيان عنهم !

ومما فعلته السلطات بسبيل ذلك تخصيص مبالغ طائلة للجمعيات الدينية
المسيحية باسم النظر في شؤون المسيحيين الدينية ونظرة الى رقمين في احدي
الاحصائيات تدل على المحابة وسوء القصد . فقد كانت مخصصات الجمعيات الاسلامية
التي تنظر في شؤون المسلمين الدينية عام ١٩٢٧ (٣٣٧٠٠٠) فرنكا في حين ان عدد
المسلمين يزيد عن سبعة ملايين اذ ذاك بينما كانت مخصصات الجمعيات المسيحية
(٨٨٣٠٠٠) فرنك وهم اذ ذاك نحو ستمائة وخمسين الفا . وقد استولت السلطات
على الاوقاف الاسلامية الواسعة القيمة وأدخلتها ضمن املاك الدولة .

- ٧ -

استمرار هذه الصور الى الابد

وهذه الصور البشعة الظالمة التي كانت في عام ١٩٣١ ظلت هي القائمة تعمل الى

الآن بجد ودأب في تجويع الشعب الجزائري وافقاره وحرمانه وتجهيله وهدم كيباه ومقوماته على ما يستفاد من صرخات بعض النواب الجزائريين في مجلس النواب الافرنسي بين يدي مشروع نظام الاتحاد الجزائري الافرنسي الذي فكرت به فرنسا؛ مع ملاحظة ان النواب الجزائريين المسلمين هم من المتجنسين بالجنسية الافرنسية والذين وصلوا جبالهم بجبال فرنسا فاستطاعوا ان يصلوا الى مقاعد مجلسها النيابي. وأمامنا ثلاث خطب لثلاثة منهم احداها في حالة الجزائر الاقتصادية وثانيتها في حالتها الأدبية وثالثتها في حالتها السياسية.

صرخات نواب الجزائر عام ١٩٤٧

وقد جاء في الاولى التي القاها احمد مزغنه في هذا المجلس يوم ٢٠ آب من عام ١٩٤٧ فيما جاء : ان ما يقرب من نصف الاراضي الزراعية أي تسعة ملايين هكتار من عشرين هي ملك لثمانمائة الف مستعمر بقطع النظر عن التفاوت العظيم في نوع الأرض حيث تزيد قيمة اراضي المستعمرين اضعافا مضاعفة عن قيمة اراضي الجزائريين ، وبهذا التفاوت العظيم أصبح المستعمرون هم أصحاب اجود الاراضي وأخصبها . وهم اصحاب الملكيات الكبيرة والمتوسطة فيها . فهناك طبقة منهم كبيرة العدد يتجاوز متوسط ما يملكه الفرد منهم (١٠٠٠٠) هكتار اي مئة الف دونم . وهناك طبقة منهم أقل متوسط يملكه الفرد هو مئة هكتار، هذا في حين ان طبقة قليلة العدد من المسلمين متوسط ملكيتها خمسة عشر هكتاراً - ١٥٠ دونماً . أما متوسط ما يملكه الجمهور الاعظم فهو هكتاران . ولا تصلح اراضيهم على الاغلب الا للزراعة الموسمية التي تظل تحت رحمة السماء في حين أن جميع الاراضي المروبة والصالحة للخضروات والاشجار المثمرة في يد المستعمرين .

وقد خصوا عدا ذلك بمجزئات المياه ومعدات الاشغال العامة التي تدفع تكاليفها ميزانية الجزائر. اما اليد العاملة فيقدمها الاهالي الذين كونت منهم تلك الاقطاعية طبقة تعد بالملايين من الفلاحين الكادحين الذين جردوا من كل شيء وحرموا من كل امل وبتاتوا عرضة للجوع والعري والنشرد ، فأصبحوا اساس المشكلة الجزائرية

فمن المليون والاربعمئة الف امرة التي يتكون منها الجزائريون يوجد (٨٠٠) الف امرة عمال كادحين منها ٧٠٠ الف أي ما يقرب من اربعة ملايين نسمة تتكون منها هذه الطبقة العاملة الزراعية . وقد كانت اغلبية هذه الطبقة هي صاحبة الارض والشاغلة لها تعيش بشيء من الهناء ، ويكاد المزارع يكون شريكاً لصاحب الارض أكثر منه اجيراً ، ففي اقل من مئة عام تغير المجتمع الجزائري تحت ضربات هائلة تغيراً كلياً حتى بدت هذه الصورة الرهبة لهذه الطبقة . ولقد كانت حالة سوء الغذاء التي اصابته العالم اثر الحرب هي الحالة السائدة في الجزائر قبلها ، وحالة المساكن التي تسكنها هذه الطبقة سيئة جداً وضارة بالصحة وقد تفتت فيها الامراض بسبب عوامل الجوع وسوء الغذاء والمسكن تقشيراً مخيفاً وللأسل خاصة مرتع خصيب وواسع فيها .

ولا تختلف سياسة الاستعمار ونتائجها في ميداني الصناعة والتجارة عنها في ميدان الزراعة ، حيث قامت على أساس حماية الصناعة والتجارة الفرنسية .

وقد جاء في الثانية التي القاها مسعود بوقادوم : ان الاستعمار الفرنسي لم يفتح من بلادنا بالاستثمار بثروتها واقتصادياتها واستغلال شعبها بل حارب كذلك ثروتها الثقافية وميراث شعبها الروحي . ان للجزائر شخصية خاصة كونتها القرون المديدة من وحدتها الجغرافية والاغوية والتاريخية والدينية . وليس هناك ما يزعمه البعض من فرق بين العرب والبربر بل هناك شعب واحد هو الشعب الجزائري . ولقد أجهد الاستعمار نفسه كثيراً في إبادة هذه الشخصية لأنه ظن ان الشعب الذي غلب بالسلاح واستؤثر باقتصاده وحرم مقومات شخصيته سيصبح بمثابة حفنة من غبار بشري خال من الروح ومستعد لقبول كل التغييرات وانواع العبودية والرق . إنكم لا تجهلون ان الشعب الجزائري دينه الاسلام ولغته العربية ؛ وهذان هما العنصران الرئيسيان اللذان يكونان الشخصية التي يجارها هذا الاستعمار . ومع أن معاهدة تموز ١٨٣٠ المنعقدة بين الدايمي والجنرال دي بورمون تحتم احترام حرية جميع السكان ودينهم وملكيتهم فانها نقضت بعد شهرين ثم ظلت تنقض . وقد وضعت الادارة الاستعمارية يدها منذ تلك السنين على الأملاك الدينية ، وغدت المساجد والمعاهد تحت تصرفها المباشر وفقد الدين الاسلامي استقلاله ، بل لقد حرم من

الحربة التي منحها مبدأ فصل الدين عن الدولة الذي اعلنته الجمهورية الافرنسية والتي يتمتع بها الدبنان المسيحي واليهودي. وأبعد نكايه وبشاعة من هذا أن النفقات التي تؤدبها الادارة للأديان غير الاسلامية تحسب على خزينة الاوقاف الاسلامية وان ما ينفق على مصالح الدين الاسلامي الذي يعتنقه عشرة أضعاف معتنقي الاديان الاخرى لايزيد على ثلث ما ينفق على مصالح الأديان ... وكان من جملة آثار هذا العدوان أن أصبح موظفو المعاهد الاسلامية من أعوان الاستعمار الذي يبذل جهده في محاربة الدين الاسلامي ولغته ومعتنقيه ، وان تعطلت مؤسسات ثقافية عديدة كانت تساعد على تثقيف ابناء المسلمين وتعليمهم مساعدة كبرى . وهكذا كان وضع الاستعمار يده على املاك الاوقاف بمثابة سلب صريح وخيانة صارخة ، وضربة موجعة أصابت الدين الاسلامي وحده رغم مبدأ اللادينية الذي ما انفكت فرنسا تعلنه عن دولتها في كل مناسبة . ولقد سهلت السبل امام التبشير بالنصرانية بمختلف الوسائل مهما كان فيها من تحد للمسلمين وشعورهم . وكان المبشرون يفتنمون فرصة الجماعات والثورات لاختلاط اطفال المسلمين وتنصيرهم على اعتبار ان تنصير المسلمين هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها تذويب الجزائريين في البونقة الافرنسية . وإذا كانت هذه المحاولات لم تنجح نجاحها المأمول فانما مرد ذلك الى قوة رسوخ التقاليد الاسلامية في الشعب الجزائري . وإلى جانب هذه الجهود المبذولة لتنصير الشعب الجزائري هناك سياسة حرب مشنونة على عروبتة . وقد أصبحت المدارس التي تعلم اللغة العربية نتيجة لهذه السياسة تحت اجراءات شديدة صارمة ، حتى تلك الكتابيب التي يلقن المعلمون البسطاء فيها سور القرآن بطرقهم القديمة لم تسلم من هذه الاجراءات . ولقد كان من جملة هذه الاجراءات وجوب الحصول على رخصة ، ثم عسرت هذه الرخص كل التعسير ؛ حيث شرط على معلمي المدارس العربية معرفة اللغة الافرنسية كما اعتبرت اللغة العربية القرآنية التي هي لغة اهل البلاد لغة أجنبية فكان كل ذلك سبباً في إغلاق جميع المدارس والمعاهد والكتابيب القرآنية والعربية !

وقد جاء في الثالثة التي القاها الاستاذ دررور : ان الحرب التي أعلنها الاستعمار الافرنسي على الشعب الجزائري تطرد في المجال السياسي اطرافها في المجالين

الاقتصادي والادبي فقد أنشأ الاستعمار جهازاً ادارياً تسيطر عليه الاقلية الأوروبية سيطرة مطلقة . ويقوم هذا الجهاز على الضغط المستمر المنظم على الجزائريين الذين حرّموا من دستور يحفظ حقوقهم ويحمي حرياتهم والذين ليس لهم أية مساهمة جديدة في حكم بلادهم ، حيث فتجمع جميع السلطات العسكرية والسياسية والادارية في يد الحاكم العام ، اما الادارة المباشرة فتتوجع الى مكاتب الشؤون الالهية التي هي تحت سلطة هذا الحاكم وإدارة ضباط متخرجين من مدرسة ييجو الاستعمارية القديمة الذين لا يعرفون غير مبدأ واحد للحكم وهو مبدأ « القوة » ومن هذه المكاتب التي سميت أخيراً تضليلاً باسم « مكتب الاصلاحات الاسلامية » يعين الضباط حكّاماً لمناطق الجنوب ويعين المديرون والمختارين والمراقبون الذين هم آلات مسخرة لتنفيذ سياسات الاستعمار الاقتصادية والادبية والسياسية . والمجلس الاعلى الذي هو استشاري يتكون من ستين عضواً ليس بينهم من العرب الا سبعة اربعة منهم منتخبون ! والمجلس المالي صاحب السلطات المالية يتكون من ٦٩ عضواً ليس فيهم الا ٢١ جزائرياً (١) . وما تزال مناطق الجنوب تدار بادارة عسكرية وحكامها العسكريون يتمتعون بصلاحيات غير محدودة عسكرية وإدارية وقضائية . وما يزال قانون « الانديجن » الخاص بالعرب والذي وصفه احد الكتاب بأنه القضاء المرعب جائراً على الشعب بصلاحيات النهب والاستغلال المتوحش والاستعباد وخنق الحريات وقتل الجهود والحيلولة دون اي حرية اجتماعية أو سياسية وما يزال نظام الغرامات المشتركة قائماً يرهق الشعب بمظالم حيث يفرض بموجبه على المنطقة التي تقع فيها جريمة ولم يعثر على مجرمها غرامة تبلغ أحياناً ستة وقمانية اضعاف الضرائب فضلاً عن تعرض جميع الاملاك للحجر الصارم . كذلك وما يزال نظام الغابات سرعياً وهو الذي يقاسي منه الشعب أشد انواع المتاعب والاضرار ، ومن جملة ذلك وجوب تعليق جرس في رأس كل شاة ووجوب سلوك الرعاة طرقاً معينة في غدوهم ورواحهم تحت طائلة الغرامات . . وقد حرّم الشعب الجزائري من جميع الحريات مهما كانت أولية أو ضرورية لحياة الشعوب حتى حرية التنقل والتجول بينما يتمتع الأوروبيون في الجزائر بجميع الحريات ولهم الحقوق المطلقة في

(١) هذا العدد وذلك كان في عام ١٩٣١ .

تأسس ما يشاؤون من الجمعيات والأحزاب وعقد الاجتماعات بما حرم منه الشعب الجزائري البتة .. ويستخدم الاستعمار سلاحاً رهيباً في ممارسة سيطرته وارهابه وهو ما يسميه من قبيل التواضع بالأمن العام والذي يتكون فضلاً عن الدرك والحرس المتجول وشرطة التحري والعملاء الأذنان التابعين لمكتب الشؤون الأهلية من جيش عرمرم مستعد في كل وقت لتعطيم أي محاولة يقوم بها الشعب ليدفع عن نفسه الأذى . وقد عززت هذه القوة في المدة الأخيرة واستخدمت شرطة خاصة مهمتها مراقبة نشاط الوطنيين السياسي .. وفي حقل التعليم يسلك الاستعمار سياسة تجهيل منظمة خطيرة . فهو فضلاً عن عدم بذله أي مجهود أو عناية لنشر العلم بين العرب يقوم بحرب سافرة مستمرة لمناهضة التعليم العربي . وخطته الدائمة في التعليم الأفرنسي للعرب هي حبسهم في حلقاته الابتدائية وإقامة كل العقبات أمام ما بعدها .. وقد جاء في بيان القاه رئيس المجمع العلمي الجزائري الأفرنسي سنة ١٩٤٤ أن مجموع الاطفال المسلمين الذين هم في سن التعليم يبلغ مليوناً واربعمائة ولا يتلقى منهم التعليم الأفرنسي غير مئة ألف، وأن عدد الاطفال الأوروبيين الذين هم في المدارس ضعف عدد ابناء المسلمين مع أن عدد المسلمين أكثر من عدد الأوروبيين سبع مرات . وهذا يعني بعبارة أخرى أن الاطفال العرب الذين يتلقون التعليم أقل من نسبة الاطفال الأوروبيين بأربع عشرة مرة . ويخصص من الميزانية لتعليم العرب (٨٨) مليوناً بينما يصرف على مدارس الأوروبيين منها (٣٣٩) مليوناً .. والاستعمار يبذل جهده في سبيل بقاء العرب أميين ويسهر على ذلك سهراً فائقاً لأنه يعتبر تعليمهم مأساً بقدرسية امتيازاته . أما التعليم الثانوي والعالي فيكاد يكون محرماً على الجزائريين تحريماً مطلقاً . ففي جامعة الجزائر اربعة آلاف طالب ليس منهم من العرب الا مئة والباقيون من ابناء المستعمرين . وليس من جزائري يستطيع ان ينتسب الى المدارس المهنية والفنية العالية ، فجميع طلاب هذه المدارس من اولئك الابناء . وكل ما هنالك بعض مدارس مهنية ابتدائية تعلم فيها مبادئ أولية للحدادة والنجارة يستطيع ان ينتسب اليها ابناء المسلمين (١)

(١) يلاحظ صدق القول بأن الصورة التي كانت عام ١٩٣٦ وحتى الارقام ظلت على ما هي عليه بعد مضي أكثر من خمس عشرة سنة او منها ما كان تفوقاً للمستعمرين على المسلمين مثل ملكيات الأراضي .

النضال الوطني بزعامه المصالي

ومع ان السلطات قد نفتت قليلاً من كابوس الارهاب بعد سنة ١٩٣١ وسمحت في وقت ما للجزائريين بتشكيل جمعيات أهلية تنشط في سبيل حقوق المسلمين وشؤونهم ، وأن هؤلاء سارعوا الى الانتفاع من الفرصة فأنشأوا بعض الجمعيات ، وأخذوا يرفعون اصوات الشكوى من جور القوانين وسياسة التجهيل والافقار والحرمان من كل مشاركة مجدية في الحكم والادارة ومن استمرار تدفق المهاجرين وتوطينهم في الأراضي الصالحة والاعداق عليهم من أموال الدولة وتفضيل المستعمرين في كل شيء ، والسير بخطوات واسعة في سبيل سلخ الصبغة العربية الوطنية الاسلامية عن الجزائر الخ ، وأنه نتج عن هذا ايفاد لجنة تحقيق عام ١٩٣٢ لدرس الأوضاع فلمست كل اسباب الشكوى فيما قدم لها من أرقام وتقارير وشاهدته من وقائع ، فان السياسة الغاشمة المرسومة ظلت هي الدستور النافذ بتأثير رجال الاستعمار في فرنسا والجزائر دون مبالاة بالشكوى والواقع الأليم المرير على ما هو ثابت من صرخات نواب الجزائر التي اقتبسنا منها ما اقتبسناه آنفاً ؛ فكان هذا مما دفع الوطنيين الذين كوثوا كيانهم القومي الوطني بزعامه زعيمهم الكبير المصالي الى خطوة جريئة وصریحة تصح أن تكون موقفاً حاسماً من مواقف النضال الوطني السياسي الصريح ، وإعلاناً لولادة الحركة العربية القومية في الجزائر .

اعلامه مبداء الاستقلال وأثره

كذبت كل ما منت فرنسا به نفسها وظنت أنها حققتة في الجزائر حيث عقد مؤتمر عربي في سنة ١٩٣٧ شهده اصحاب الشأن والكلمة والبروز من رجال المسلمين وشبابهم تقرر فيه إعلان الجزائر وطناً عربياً مستقلاً وبطلان كل ما فرضته فرنسا من أنظمة وقوانين وجهاز حكومي وإفرنسية الجزائر ، وأذيع بذلك بيان قوي هز الافرنسيين هزاً عنيفاً وجعلهم يحن جنونهم ويتموت بمحنة ادهاب واسعة

وعنيفة حيث أعلنوا الأحكام العسكرية واعتقلوا الزعماء الوطنيين ومئات من البارزين وحكموا على بعضهم بأحكام قاسية، ونفوا بعضهم الى المنافي الصحراوية . وكان لحركة الارهاب هذه رد فعل شديد ظهر في المظاهرات الصاخبة والاشتباكات الدامية مما اضطر السلطات الى تخفيف غلوائها والعمل على تهدئة الأفكار ؛ ولا سيما ان حالة أوروبا قد كانت تسير من سيء الى أسوأ .

الجزائر في الحرب الثانية

ونشبت الحرب العالمية الثانية بعد قليل فاغتنمتها فرنسا فرصة لغرض رقابة عسكرية ارهابية شديدة ، وجندت في ظلها مئات الألوف من الجزائريين الذين قذف بهم الى جبهات أوروبا وحاربوا في صفوف فرنسا وأراقوا دماءهم في سبيل الدفاع عنها ولما انهارت فرنسا الأم ووقعت تحت سنايك غزاة الألمان كانت الجزائر ملجأ حركة التحرير التي رفع لواءها ويقول باسم فرنسا الحرة ، واستغلتها هذه الحركة فيما حارها من نحو وقوة؛ وبدلاً من ان يحفز هذا الافرنسيين على الاعتراف بحميل الجزائر وردة عليها رداً كريماً شدد حرصهم على التمسك بها فأخذوا يرددون نغمة الاتحاد الافرنسي التي تهدف الى سلخ أقطار المغرب العربي من كيانها القومي العربي أبدياً .

استئناف النضال الوطني

فعمدت الحركة الوطنية الى النشاط ثانية على أساس بيان مؤتمر عام ١٩٣٧ وبزعامة الام الي وأخذت الروح تقوى وتنتشر؛ ولم تكد الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها في أوروبا حتى عادت الحركة النضالية الى قوتها منذ أوائل عام ١٩٤٥ ، وأخذت صرخات الاحتجاج تتعالى والزعماء الوطنيون يدعون الى الجهاد في سبيل الحركة والاستقلال والنجاة من يوائن فرنسا والاتحاق بقافلة الحركة العربية العامة ، وأخذت البلاد العربية ترد هذه الحركة وتؤيد الجزائريين والمغرب العربي عامة في نضاله ومطالبه ؛ وكان قيام الجامعة العربية واشتداد قوة الحركة العربية

في ظروف قيامها مما ساعد على هذا الترويد وأحدث أثراً في اشتداد ساعد المغرب
وحررته .

الانفجار الثوري

ونجحت فرنسا واشتدت في المطاردة والكبت فأدى ذلك الى انفجار شديد في
مناطق قسنطينة وسطيف وغيرها حيث كانت اشتباكات دموية خطيرة اشترك فيها
الألوف وبدأت عليها علامت ثورة لاهية واسعة المدى ؛ وقد عمدت فرنسا الى
ما اعتادته من قوة القمع والتنكيل فقصفت مناطق الثورة بالطائرات والمدافع
ودمرت عدداً كبيراً من القرى والأحياء وذهب ضحية هذا القمع القاسي أرواح
آلاف من الجزائريين قدرتهم الاحصاءات المغربية الوطنية بما يتراوح بين الثلاثين
والخمسين الفا واعترفت السلطة الافرنسية ببضعة آلاف من القتلى والجرحى وتدمير
اربعين قرية كنتيجة له .

على ان نشاط الجزائريين النضالي لم يخمد وشعلتهم المتقدة لم تنطفئ، وتصميمهم
إزداد شدة على شدة بالرغم مما تركبه فرنسا في القمع والتنكيل مما لا يكاد يصدق من
فتون القسوة والبطش والانسلاخ من شعور الانسانية والرافة والحق والمنطق ؛ بما
عانت شيئاً منه سوريا ولبنان على ما ذكرناه في الفصول السابقة . وهكذا يصح
ان يقال انه بدأ في الجزائر عهد جديد للنضال القومي العربي ضد العدوان والبغي
والجمود وسوء القصد الذي تعرضت له وتعرضت به الحركة العربية فيها بالتبعية من
فرنسا ، وغدا للجزائر مطلب قومي عربي وشعار قومي هو التحرر من ربة فرنسا
والاستمتاع بالاستقلال والحرية والشخصية والاتحاق بالحركة العربية العامة
والاندماج في اهدافها ، وسرت هذه الروح الى مختلف طبقات المسلمين حتى للذين
تجنسوا بالجنسية الافرنسية واندجوا في الحياة الافرنسية السياسية قليلاً او كثيراً
حيث رأينا نوابهم في البرلمان الافرنسي يرسلون تلك الصرخات الداوية منددة بحكم
فرنسا وعهدها وظلمها وسوء قصدها نحو عروبة الجزائر ومقوماتها الروحية ومصالحها
الاقتصادية وكيانها القومي .

مصرفة نائب جزائري آخر بضرر أنه الحركة القضاية هي حركة استقلالية عربية

ولقد جاء هذا قوياً صارخاً في الخطاب الذي القاه الدكتور الامين دباغين النائب الجزائري في مجلس النواب في ٢٠ آب ١٩٤٧ كتتمه للصرخات التي ارسلها زملاؤه الثلاثة بسبيل رفض مشروع الاتحاد الافرنسي عبر فيه عن مدى الحركة النضالية وغايتها الصريحة وشدة صلتها بالحركة العربية القومية حيث هتف قائلاً :

ان اخوانه الذين سبقوه في الكلام قد بينوا مامله الاستعمار في بلاده المنكودة من كوارث حقيقية من مختلف النواحي ؛ غير انه من الخطأ الجسم أن يظن أحد بأن وغبة الشعب الجزائري في الاستقلال قد نتجت من فشل هذا الاستعمار في مهمته المادية ؛ إذ ان معنى ذلك انه لو كتب له النجاح في الميدان المادي وتحسن من جراء ذلك مستوى الحياة للشعب الجزائري لكان كافياً لغض نظره عما سببه من ضياع شخصيته وسيادته وثقافته ؛ فلا يجوز ان يظن أحد صواب ذلك ، ولو فرضنا ان فرنسا تمكنت من تحقيق المعجزات في ما تسميه « مستعمرتها الجزائر » ولو فرضنا ان جميع الاضاليل التي يتاجر فيها لفائدة الاستعمار اصبحت حقائق قائمة ، ولو فرضنا ان الشعب الجزائري الذي يزعم هذا الاستعمار انه لم يكن سعيداً في عهده الاستقلالي السابق قد اصبغ بفضل الغزو الافرنسي أرفى الشعوب ثقافة وأجودها صحة واكثرها رخاءً فإن كل هذا لن يغير شيئاً من نضاله المستميت في سبيل استعادة استقلاله وسيادته ! ارجو ان لا تنسوا ان الشعب الجزائري أمة بذاتها وانه كان ذا سيادة ، وان عدوان عام ١٨٣٠ هو الذي افقده سيادته ! إن هناك ميلاً الى تناسي هذه الحقيقة بما يتكرر من التوكيدات بأن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا وانها مجموعة ترابية من الجمهورية الافرنسية ؛ غير ان هذه دعاو من جانب واحد لا تقوم على اساس ، وهي دعاو باطلة تكذبها جميع الحقائق التاريخية والجغرافية والجنسية التي لا تتحمل اي مرأ . فقد كانت الجزائر بلاداً مستقلة ذات سيادة يسكنها شعب عربي له خصائصه وتقاليده القومية ؛ وكانت دول الارض بما فيها فرنسا تعترف بذلك وتعقد معها المعاهدات المتنوعة وتقف منها موقف الندد من الند . ولما اعتدي عليها عام ١٨٣٠ كافتحت كفاحاً شديداً دام نحو ثلاثين سنة

وقدمت من الضحايا ما يقرب من المليونين في المعركة . وإذا كان قانون الكثرة وتفوق القوة قد جعل مصير الحرب ضدها فليس معنى هذا ان حقها في الاستقلال قد سقط وبطل او أن ذلك قد اعطى فرنسا الحق بأن تدعي بأن الجزائر ارض افرنسية وبأن تفكر في فرض اي نظام تشاء عليها . وليس من فرق بين الجزائر وبين اي امة غزاها هتلر او غيره من قبله كبولونيا وشكوسلوفاكيا ، ولم يغير هذا الغزو شيئاً من حقيقة الامر ، وها هو الاستقلال والحريّة يعودان الى هذه الأمم ، والامر بالنسبة للجزائر سواء بسواء . فهي دولة خاضت ببطولة نادرة حرباً خسرتها ، ولكنها لا يمكن ان تقبل بحال ان تكون نهاية تلك الحرب هي نهاية سيادتها لانها ستسترجع حريتها من جديد وتعود الى ما كانت عليه . ولا يخامرها ادنى شك في ذلك إن قرناً من الاضطهاد لم يفقد الجزائر شخصيتها ولم ينل من تصميمها المتحفز دائماً . وهذا هو السبب الذي من اجله لا يمكننا نحن الجزائريين ان نقبل بأي حل لا يحقق قبل كل شيء احترام هذه الشخصية وحرية ثقافتنا العربية وخاصة ضمان استرجاع سيادتنا القومية ضمناً مطلقاً ! ان الدافع للعدوان عام ١٨٣٠ إنما كان الطمع في الغنيمّة والغزو ، وحل القضية الطبيعي والحالة هذه هو جلاء القوات الافرنسية عن الجزائر وإعادة اراضيها المعتصبة الى ذويها الشرعيين ومدارسها الى ثقافتها العربية ومساجدها الى دينها الاسلامي . وليس لفرنسا مطلقاً ان تفرض على الجزائر اي قانون ونظام ، وان هذا هو ما تقاومه الجزائر وترفضه بكل قواها ، لان شعبها يعتبر نفسه هو وحده المالك لحق تقرير مصيره واختيار نظمه الخاصة التي يديرها سياسته ، ويعتبر ان اعترافه بأي حكومة ولو فرنسا بحق منحه النظم والشرائع هو اعتراف منه بالأمر الواقع الذي اوجده الاستعمار في بلاده ضد حقوقه المقدسة ومصالحه الحيوية ، وتنازل منه عن سيادته الوطنية وهذا ما لن يحدث ابداً . وقد حملنا هذا الشعب نحن النواب الوطنيين الجزائريين مسئولية تبليغ الشعب الافرنسي والعالم بأجمعه بأن بلاده لا تعترف بهذا الأمر الواقع الذي احده غزو عام ١٨٣٠ وبأن الجزائر ليست افرنسية ولن تكون كذلك في يوم من الايام ، وبأنها لا تعترف لفرنسا بحق منحها القوانين أو سن المشاريع لها ما كان نوعها وبأنها لن تقبل بأي حل لا يضمن له قبل كل شيء عودة سيادتها الوطنية إليها !

والخطاب طويل قوي مدغم بالحجج الدوائية والحقوقية والمنطقية وممتلي بالتنديد القارص بظلم فرنسا وعسفا . وقد كان يقاطع من بعض النواب الافرنسيين الذين اغتاضوا أشد الغيظ من حملة النواب الاربعة الشعواء بسبيل اعلان عروبة الجزائر ورفضها نظام الاتحاد . ومن الطريف البالغ في القحة أن بعض المقاطعين كانوا ينعنون الجزائريين بيهود جميل فرنسا ومستعمرها في ما كان من إعمار بلادهم وازدهارها ناسين ان خير هذا إنما عاد اليهم وأنه أدى الى بؤس الجزائريين وجهلهم وفقيرهم ومرضهم واسترقاقهم من قبل فرنسا ومستعمرها وتهديد كيانهم العربي والديني بالانهدام بل وهدمه فعلا إلى شوط بعيد .

الفصل الثاني

فرنسا وتونس

- ١ -

مائة تونس قبل المنكب

ومنذ أخذت قدم فرنسا تتوطد في الجزائر أخذت تفكر في القفزة الثانية ، فانجبت انظارها الى القطر التونسي أولاً ؛ وكانت تونس منذ اوائل القرن الثامن عشر تتمتع باستقلالها في ظل دولة تمت في اصلها الى العنصر التركي الذي استولى على الجزائر وتونس في اوائل القرن السابع عشر باسم الدولة العثمانية . وكانت رؤساء هذه الدولة يتلقبون بلقب الباي والباشا . وقد تمكنوا بعد فترة من الزمن من الانفراد في الحكم دون الدولة العثمانية . وتعربوا وتألفوا هم ومن كان معهم من يمت الى العنصر التركي ، واندجوا في القومية العربية التونسية .

وفي اوائل القرن التاسع عشر أخذت الدول الأوروبية تعترف بتونس كدولة مستقلة وتنشئ معها صلات عهدية تجارية وسياسية . وأخذ أمراؤها يسعون في طريق اصلاح جهاز الحكم وتقوية الجيش وتنظيمه وإنهاض البلاد اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً . وقد سارت تونس في عهد امرائها أحمد باشا ومحمد باشا والصادق باشا خطوات حثيثة في هذا السبيل . ففي عهد الأول نظم الجيش وانشئ اسطول بحري وأسست مصانع الأسلحة والذخيرة ودار لصناعة السفن ، وفي عهد الثاني من دستور حديث يقوم على المبادئ الديمقراطية بحيث سجل بذلك أولية الحكم الدستوري الحديث بين الدول العربية والإسلامية - إذ كان هذا في اواسط القرن التاسع عشر - ، وفي عهد الثالث قام مجلس تشريعي ذو سلطات واسعة ونظم

جهاز الحكم تنظيمياً عصبياً ومن قانون ضمان حقوق الفلاحين ووضع منهج خاص لتوزيع الأراضي الاميرية على سكان البادية وأصلحت مناهج التعليم ، وأصبحت المدرسة الصادقية للعلوم واللغات ، وأرسلت البعثات العلمية إلى فرنسا وإيطاليا وغيرهما ، كما استقدم خبراء أجانب وسمح لرؤوس الاموال الاجنبية بالنشاط والاستثمار .

التنافس بين ايطاليا وفرنسا

ومنذ بدأت تونس نهضتها هذه أخذ التنافس يشتد على الاختصاص بها بين فرنسا وايطاليا بنوع خاص . وكانت رؤوس الأموال الأجنبية والخبراء الفنيون من مجالات هذا التنافس ومظاهره كما كانت سبباً في نكبة تونس بالاحتلال الافرنتسي ، حيث أخذت قنصل الدول المتنافسة يفترون الامراء بمشاريع اصلاحية ، ويورطونهم في الاستقراض بسبيل القيام بها ، ويضعون في عنق البلاد الاغلال واحداً بعد آخر . وقد أدى هذا الى فرض ضرائب مرهقة للشعب نتج عنها ثورة داخلية عنيفة عام ١٨٦٤ واضطر الباي بقوة الضغط الدولي الى قبول لجنة مالية دولية لتوحيد الديون والى رهن ايراد الجمارك مقابل رفاها . وكانت هذه الديون تبلغ عام ١٨٧٠ نحو ١٢٥ مليون فرنك . وظل التنافس قائماً بين ايطاليا وفرنسا على مرافق البلاد وامتيازات مشاريعها ، وحالف النجاح فرنسا أكثر ففالت إمتيازات عديدة بإنشاء سكك حديدية وموانئ ؛ ومن ثم أخذت تتمد الى تعطيل اعمال اللجنة الدولية أو عرقلتها لتزداد أحوال تونس سوءاً وتقتنع الدول بتسليم مقاليد امورها اليها . على انها لم تتروك ذلك للصدف ؛ حيث أخذت تهيم الظروف المساعدة على ما تريد ولا سيما أنها رأت قنصل ايطاليا يسعى حثيثاً في منافستها وبنال امتياز مصلحة البرق ويتمكن من شراء خط حديدي من شركة انجليزية بشن كبير . ولقد كان يقع على الحدود الجزائرية بعض الاحداث الخلة بالامن فاتخذت حادئاً منها ذريعة إلى تنفيذ عزميتها وسارعت الى تسيير بعض قواها من ناحية هذه الحدود من جهة وإزالة قوة بحرية في مينائي بنزرت وطبرقة من جهة اخرى دون ان تعبر احتجاجات الباي واعلانه استعداداه لدفع الغرامات وضمن الحدود وأمنها اهتماماً . وفي تاريخ ١٢ مائس من عام ١٨٨١ حوصر الباي في قصره في باردو وأجبر على توقيع المعاهدة التي تعرف بمعاهدة باردو .

فرض الحماية على تونس ومعاهدتها وخطوات فرنسا الاولى

وقد نصت هذه المعاهدة على حق فرنسا باحتلال الأماكن التي توى احتلالها ضرورياً لحفظ الأمن وتأمين الحدود ، على أن ينتهي الاحتلال حينما تنفق السلطتان الحربيتان الافرنسية والتونسية على قدرة الحكومة الوطنية على تأمين الأمن ، وتعهدت فرنسا فيها بتنفيذ المعاهدات النافذة بين تونس والدول الاخرى وتمثيل تونس ورعاية مصالح رعاياها في البلاد الأجنبية من قبل ممثليها وقناصلها ، وتعهدت الباي بعدم ابرام أي عقد ذي صبغة عامة مع دولة اخرى دون علم فرنسا وموافقها . ولم تكتف فرنسا بما فرضته في هذه المعاهدة من شروط ونصوص تنطوي على القضاء على سيادة تونس ، بل أجبرت الباي في نفس السنة على اصدار مرسوم باعتبار المقيم الافرنسي العام - المندوب السامي - الذي سيمثل فرنسا في تونس وزيراً للخارجية كما أجبرته بعد سنتين على توقيع معاهدة اخرى نصت على الاعتراف بحماية فرنسا والتعهد بالقيام بالاصلاحيات الادارية والعدلية والمالية التي توى الحكومة الافرنسية فائدة لها ، وخطت بعد سنة اخرى خطوة خطيرة حيث ذهبت الى تأويل المعاهدتين تأويلاً لا يتسق مع النصوص ، وعمدت الى التصرف بالأمر تصرف الدولة تجاه ولاية من ولاياتها ، فأصدر رئيس الجمهورية مرسوماً بمنح المقيم الافرنسي العام نيابة عن الحكومة الافرنسية حق المصادقة على ما يصدره الباي من أوامر ومراسيم وعدم نفاذ أي شيء يصدره من دون موافقته . وهكذا حلت فرنسا محل الدولة ، وأتاحت لنفسها حكم البلاد حكماً مباشراً وجعلت مقيمها الحاكم الأعلى والأمر المستبد فيها بغيراً وعدواناً وبقوة الحديد والنار .

- ٢ -

الثورة ضد الحماية

على أن تونس لم توضع للواقع . فهاج الشعب منذ وطئت أقدام القوى الافرنسية أراضي بلاده وازدادت هياجه منذ علم أن الباي إنما أجبر على ما وقع اجباراً ،

فشبت الثورة وعمت جميع أنحاء البلاد؛ وحينئذ أخذت النجدات تتوارد وأخذت السلطات الافرنسية تشدد في القمع والتنكيل وكانت معارك طاحنة استمرت بضعة أشهر واشتهرت القيروان وسوسة وقابس والقلة الصغيرة وزغوان وتسنور و صفاقس خاصة بمقاومتها الضاربة وبسالتها وضحاياها . وقد حوصرت الاخيرة حصاراً شديداً براً وبحراً ودمرت تدميراً .

ومع أن القوة غلبت الحق في هذه المعارك التي انعدم فيها التكافؤ فقد ظلت المنطقة الجنوبية خاصة تقاوم القوة الغاشمة بزعامة قائدها الكبير علي بن خليفه نحو ثلاثين عاماً أي الى سنة ١٩١٠ كما ان الشعب التونسي ظل يعلن رفض الحماية التي فرضت عليه بالقوة ويقاومها بكل وسيلة استطاع اليها سبيلاً من ثورات واحتجاجات وحركات وطنية ومواقف تمردية ومؤتمرات قومية ، ولم يدع فرصة تمر دون أن ينتهزها في إعلان إرادته وتوكيد رفضه والسعي للتخلص من النير الذي وضع في رقبته بغياً وطمعا واستناداً الى تفوق القوة ، بالرغم مما عمدت اليه فرنسا وظلت تقارسه من القمع والتنكيل والدم والتفريق والاضطهاد والارهاق والتشريد والنشرع في سبيل إخضاع هذا الشعب العربي الأبي .

قطعة اوشممار وهدم الكيان

وبما كان يزيد من شدة الكفاح والمقاومة القومية العربية أن فرنسا استهدفت في تونس نفس الهدف الذي استهدفته في الجزائر وهو قلبها الى مستعمرة افرنسية وتبديل وجهها العربي المسلم بوجه إفرنسي مسيحي ، وانها ظلت تبذل جهودها العظيمة طيلة المدة الطويلة التي مرت والتي تقرب من سبعين عاماً في الوصول الى هذا الهدف وخاصة عن طريق فتح أبواب تونس للمستعمرين ، ونزع أراضي العرب بمختلف الأساليب وإقطاعها لهم ، وتهيشة أسباب استقرارهم وتحكمهم في مختلف شؤون القطر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتشريعية والتنفيذية والثقافية وتسويد اللغة الافرنسية بحيث كادت تصبح لغة الدولة ، ومحاربة اللغة العربية والدين الاسلامي بكل الوسائل ، وإبقاء أهل تونس في اطار حديدي من الجهل والفقر والمرض !

الحكم بعد الحماية

ولقد كان في تونس قبل النكبة حكم دستوري ديمقراطي تقوم على اساسه سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية على ما ذكرنا في مطلع الفصل . فكانت من أول ما فعله الافرنسيون لاصلاح شؤون تونس إلغاء الدستور وحل المجلس التشريعي وحكم البلاد حكماً فردياً إستبدادياً . وقد ستروا يدهم المباشرة في الحكم بنقل السلطات إلى يد الباي الأسير الذي قيده بقيود جعلت هذه اليد صورة لا تتحرك إلا بما يريدون ، سواء اكان ذلك في الشؤون التشريعية أم الاذارية أم المالية أم القضائية . وحيناً توطدت أقدامهم وكثر المهاجرون والمستعمرون أنشأوا مجلساً إستشارياً خاصاً بالافرنسيين لتنسيق جهود الجاليات الافرنسية والمصالح الحكومية التي يسيطر عليها الافرنسيون في صدد توطين المهاجرين وتأمين مصالحهم وسيطرتهم على الشؤون الزراعية والتجارية والصناعية . ومع انه أدخل في هذا المجلس مؤخراً عنصر تونسي فقد جاء هذا على منتهى ما يمكن من الاستهتار حيث جعل عدد اعضاء المجلس (٥٢) منهم (٣٦) إفرنسيون ينتخبون إنتخاباً من الجاليات الافرنسية و (١٦) تونسيون يعينهم المقيم العام تعييناً ... وتعالت الأصوات المستنكرة لهذا الوضع العجيب فأنتشى مجلس جديد باسم المجلس الكبير ، غير أنه حفظت الأكتورية فيه للافرنسيين فضلاً عن جعل قراراته منوطة بمصادقة المقيم العام وموافقة الحكومة الأفرنسية ا

وعلى كل حال فقد ظل المقيم العام صاحب السلطة التشريعية حيث كان وما زال هو الذي يهيء المراسيم ويحمل الباي على توقيعها . وما يوقعه الباي بسبب ما يصدره هو بصفة قرارات ولوائح تكون في منزلة واحدة مع المراسيم مع أنها في الاصل تفسير لها .

الإدارة

ولقد كان يتولى السلطة التنفيذية قبل النكبة مجلس وزراء ، فشلت السلطات يد هذا المجلس ، ووضعت بجانب كل وزير مديراً إفرنسياً بيده السلطة النافذة ، وأحدثت منصباً باسم أمين السر العام مرتبطاً بالمقيم العام وربطت به المديرين الأفرنسيين المذكورين ، فغدا أمين السر العام والمديرون هم المباشرين للسلطات التنفيذية فعلاً وغدا المقيم العام بمثابة الرئيس الأعلى لهذه السلطات ، فضلاً عن أنه كان وممياً يشغل منصب وزير الخارجية على ما ذكرناه قبل . وهكذا جمع المقيم العام بيده جميع السلطات الاجرائية الداخلية والخارجية ، أما الوزراء التونسيون فليس لهم من كل مناصبهم إلا الأسم والمرتب . ويقتصر عملهم على جلسة في كل شهر يدعوهم اليها المقيم العام باسم مجلس الوزراء ، تهيأ مواضعها وقراراتها من قبل أمين السر العام ، فضلاً عن أنها ذات صفة إستشارية . . . ومع أنه أدخل شيء من التعديل على هذا النظام عقب الحرب الأخيرة نتيجة للحركة الوطنية حيث منح مجلس الوزراء والوزراء التونسيون بعض الصلاحيات إلا أنه جعل للمديرين الأفرنسيين حق حضور هذا المجلس والأشتراك في الرأي فيه ، وأبقى لهم حقهم الأول بحيث لا تأخذ الأوامر والرسائل التي يصدرها الوزير صفة قانونية وتنفيذية الا بعد توقيعهم عليها ، كما أبقى رابطةهم بأمين السر العام وأبقيت سلطات هذا ورابطته بالمقيم العام على ما كانت عليه من قبل .

وقد جمعت في يد هذا الموظف جميع السلطات الادارية . فهو الذي يصادق على المراسيم بعد توقيع الباي عليها ولا تنفذ الا بعد توقيعه . وهو الذي يصادق على جميع القرارات الصادرة من الوزير الاكبر وبقية الوزراء والمديرين ولا تنفذ الا بعد توقيعه . وهو الذي يشرف على هبة الموظفين وعلى المصروفات العامة . وهو الذي يضع المناهج الاقتصادية ويسهر على تنفيذها . وليس للوزراء التونسيين ان يتصلوا بالوزير الاكبر الا عن طريقه !

وهكذا كان التعديل سوريا بل شراً لأن سلطات الوزارة قبله لم تكن مقيدة

بنصوص رسمية وإنما كانت معطلة تعسفاً .

وإلى هذا فهناك إدارات تعتبر إفرنسية حيث لا يوجد لها وزارات كالأشغال العامة وإدارة البرق والهريد وإدارة المعارف، فرؤساء هذه المصالح وجل موظفيها افرنسيون .

وقد وضع الى جانب كل عامل اداري في القطر مراقب مدني افرنسي، وجعل لهم الامر كله فلا ينفذ شيء من اجراءات وقرارات العمال التونسيين الا بمصادقتهم ولهم نفوذ عظيم وهم مسؤولون أمام المقيم العام وحده ويمثلونه . وقد استهروا بجزويتهم حتى لقبوا بقياصرة الآفان .

وقد سلخت المنطقة الجنوبية من القطر عن السلطة التونسية بالمرة، واعتبرت منطقة عسكرية يدير شؤونها ضباط خاضعون لإدارة الشؤون الأهلية التابعة للمقيم العام . وقد امتاز الحكم العسكري في هذه المناطق بجزويته واضطهاده للسكان . والوضع العام للحكم أن نوزراء والمدبرين مسؤولون أمام المقيم العام الذي يخضع لوزارة الخارجية الافرتسية، وان فرنسا تحكم في تونس كما تحكم في مستعمرة افرنسية ضاربة بمعنى الدولة القائمة فيها وما اعترفته لها ولأهلها من حقوق عرض الحائط .

وقد ماثت دواثرها في المركز والملحقات بالموظفين الافرتسيين من جميع الدرجات استهدافاً لاضفاف العنصر التونسي في الحكم وصبغه بالصبغة الافرتسية فضلاً عن ايجاد مجال الرزق لجيش جوار من المستوظفين الافرتسيين بحيث كادت تونس تصيح مستعمرة موظفين افرنسيين . وقد بلغ عددهم في سنة ١٩٤٧ خمسة وعشرين الفا . وهو رقم هائل لا يكاد يصدق لولا أنه مستند الى الاحصاءات المنشورة . وتكاد وظائف التونسيين قاصرة على الدرجات الثانوية والثافية اذا استثنينا الوظائف الحكومية العليا التي لا مناص من قيام تونسيين عليها مثل الوزارات والعمال الاداريين (الحكام الأداريون) الذين جعل المراقبون والمساعدون والمستشارون الافرتسيون هم اصحاب الشأن في عملهم . ويتقاضى الموظفون الافرتسيون مرتبات عالية وعلاوات وامتيازات متنوعة ، فضلاً عن استثمار وظائفهم في الاتراء وعن القطرسة والصلف ، مما يقاسي منه التونسيون الشدائد ومما شاهدنا بعض صورة في

سوريا ولبنان . ومن تحصيل الحاصل ان تصبح اللغة الافرنسية هي لغة التعامل والتسجيل والمراسلات والمراجعات في دوائر الحكومة وان يندو مكان العربية فيها ضيقاً أو معدوماً ..

المحاكم

وقد أنشئت محاكم افرنسية الى جانب المحاكم التونسية، ومنعت اختصاصات واسعة ، وحرّم على القضاء التونسي النظر في قضايا الأجانب والأفرنسيين والقضايا التي يكون فيها التونسيون مع الأجانب طرفاً ثانياً ، كما حصر فيها حق فصل المنازعات المتعلقة بالعقارات والقضايا السياسية . هذا فضلاً عن أن المحاكم التونسية نفسها قد نظمت وفق قوانين افرنسية وعهد برأسة كثير منها الى قضاة إفرنسيين وحصرت مهام نيابة الحق العام فيها في نائب عام افرنسي ووكلاء افرنسيين وتونسيين يأتمرون بأمره . وكثيراً ما كانت المحاكم الافرنسية اداة ارهاب على الحركة القومية والنشاط السياسي حيث حصرت القضايا المتصلة بذلك فيها . فضلاً عن هذا فقد خول المقيم العام حق الامر باعتقال أي شخص لمدة سنتين قابلتين للتجديد دون أي محاكمة ، فكان هذا تنة لاحكام نطاق الارهاب .

الارهاب

ولقد شهر سيف الارهاب والأرهاب على الحريات العامة بسلسلة من المراسيم واللوائح الظالمة . فالصحافة العربية مقيدة بقيود شديدة تجعلها معرضة لاقسى العقوبات والاجناعات كذلك ، وقد قيدت حرية تنقل التونسيين في داخل بلادهم بقيود شديدة ، وقد سنت قوانين الخدمة الاجبارية بحيث يكون التونسي مجبراً على أي عمل عام تعلنه السلطات انه كذلك بالاجر والشكل الذي تراه ونحت طائفة العقوبات الشديدة . وكثيراً ما اعلنت السلطات صفة العمل العام لمشاريع استثمارية واستعمارية وزراعية تخص المستعمرين الافرنسيين واضطرت التونسيين الى خدمتها .

المستعمرون والاراضي

ولقد أنشأت السلطات الافرنسية في أول ما أنشأته ادارة خاصة باسم مصلحة الاستعمار والفلاحة وأناطت بها تنظيم توزيع الاراضي واستثمارها ، ثم أخذت تنفذ سياستها المذكورة على يد هذه المصلحة . ومن أول ما فعلته الغاء مشروع توزيع الاراضي الاميرية على الفلاحين الذين لا أرض لهم ، والذي بدى بتنفيذه قبل النكبة وانتزعت ما وزع منها من الفلاحين وأخذت توزعها على المستعمرين . وتبلغ مساحتها نحو مليون هكتار أي عشرة ملايين دونم ونسبتها لمجموع الاراضي الزراعية هي اثنا عشر من المئة . ثم اصدرت تشريعا ألحقت به وجبه الاراضي البور بأمالك الدولة وأخذت تعسّف في تحديد هذه الاراضي وتدخل فيها مساحات واسعة من املاك الاهلين المجاورة لها ، وتقطعها تدريجيا الى المستعمرين ايضا . وتبلغ مساحة هذه الاراضي ضعف مساحة الأولى . وفعلت مثل ذلك بأراضي الغابات التي تبلغ مساحتها نيفا ومليوناً من الهكتارات ، وتعسفت كما تعسفت في تحديد أراضي البور فأدخلت مساحات واسعة من املاك الاهلين المجاورة ايضا . وعهدت بحراسة الغابات والاشراف على استثمارها جيش من الموظفين الافرنسيين الذين كانوا كابوسا شديداً للوطأة والبغي على الناس في فرض الغرامات الفادحة تحت ستار الحراسة والتفتيش وحرمانهم من الانتفاع بشيء من احراسهم ! ووضعت يدها على مصادر مياه الري في المنطقة الجنوبية واعتبرتها ملكا للدولة ثم أخذت توجه صرفها الى أراضي المستعمرين في هذه المنطقة فيسرت لهم بذلك حظا سعيداً بيسانين النخيل الواسعة . وألحقت أراضي المشاع التي كان يتصرف فيها القبائل بأمالك الدولة أيضا وأخذت تقطع ما تشاء منها للمستعمرين ، وأخذت بالحديد والنايك كل حركة صدرت من القبائل بسبيل الدفاع عن اراضيهم ومورد رزقهم ، وهذه الاراضي تبلغ نحو أربعة ملايين هكتار ! ولم تتورع عن اراضي الاوقاف العامة والخاصة ، وفرضت على مصلحة الاوقاف ان تضع تحت تصرف مصلحة الأستعمار مساحة لا تقل عن الفي هكتار سنويا منذ سنة ١٨٩٨ وجعلت لهذه المصلحة

حق اختيار الاراضي التي توضع تحت تصرفها منها مقابل ثمن بحس يقدره خبير افرنسي ، ومنعت وقف الأراضي على المعاهد الدينية وحصره بالعقارات وأباح بيع الاراضي الوقفية دون اعتداد بالشروط الوقفية . وهكذا نظمت سلسلة نهج اراضي تونس على اختلاف انواعها دون ماردع من شرف او ضمير او حق او قانون لاحتلال المستعمرين الافرنسيين فيها محل أهلها .

ولأجل تسهيل توزيع الاراضي على المستعمرين وإستثمارها أنشأت صندوقاً باسم صندوق الاستعمار رأس ماله من ميزانية الدولة ومن قروض على حساب هذه الميزانية ! ومن الأقساط التي تستوفي ثمناً للاراضي المقطعة مع التنبيه أن ثمن الأراضي الذي كان يقدر تافه جداً فضلاً عن تقسيطه لعشر سنوات !

وقد بلغت مساحة الاراضي المقطعة للمستعمرين حتى سنة ١٩١٤ (٧٥٧٠٠٠) هكتاراً أي سبعة ملايين وسبعمئة الف دوخم ومن سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢٨ (١٩٧١٦٠) هكتاراً حسب الاحصاء الرسمي واستمرت هذه السياسة الباغية بنفس القياس .

والأراضي الصالحة لزراعة الحبوب في تونس تبلغ نحو ثلاثة ملايين هكتار لم يبق منها في أيدي التونسيين إلا مليون .

ولقد كان من نتائج هذا النهب المنظم الغاشم ان عم الفقر بين طبقات الفلاحين وكثرت فيهم البطالة وانخفض مستوى معيشتهم وأصبحت تغذيتهم سيئة وصاروا على شفا المجاعات التي تنتشر انتشاراً مريعاً عند أي أزمة من الأزمات .

- ٦ -

المعادن

وفي تونس معادن متنوعة ومنها ما هو غني وجيد النوع من حديد ورمصاص وزنك ومنغنيز ونحاس وبروم وفوسفات وبوتاس . وقد حصرت السلطات امتيازاتها بالافرنسيين مقابل إيجار زهيد . ومن عجيب ما تصنعه أنها تمنح شركات الاستثمار المعدني مساعدات مالية من الميزانية إذا حُققت عجز مالي فضلاً عن ما تمنحها إياه من

مساعدات متنوعة . وقد كانت الصادرات المعدنية في سنة ١٩٤٦ نصف قيمة صادرات تونس ولم تقل قبل هذه السنة عن ثلثها . وما يستخرج من مناجم تونس يشغل ثلاثة أرباع حمولة كل وسائل النقل في تونس . وفي هذا توضيح لأهمية الثروة المعدنية التونسية المنهوبة .

الصناعات

ولقد كان في تونس بعض الصناعات الوطنية فاستنت السلطات سياسة جمركية كادت تقضي عليها . وتوضع شتى العراقيل في سبيل إستفادة التونسيين من الآلات الصناعية الحديثة . وكان من هذه السياسة ان نالت الصناعات والسلع الافرنسية إمتيازات واستثناءات متنوعة ففقدت هي المتحكمة في السوق التونسية تحكماً إستغلالياً فظيماً ، وحميت بقوة هذه الامتيازات والاستثناءات من المنافسة الأجنبية . وبما تؤدي اليه السياسة الافرنسية الاقتصادية اضطرار المنتج التونسي على ضيق نطاق انتاجه الى بيع نتاجه للتجار والشركات والمصدرين الافرنسيين بالأثمان البخسة وعدم ترك اي مجال للانتفاع به انتفاعاً حراً .

التجارة

ولما كانت التجارة والصناعة والزراعة الصالحة المنتجة في أيدي الافرنسيين فقد عمدت السلطات إلى جعل معول الميزانية على الضرائب غير المباشرة التي يتحمل اكثر عبئها المستهلكون الذين غالبهم تونسيون . ولقد بلغت هذه الضرائب في سنة ١٩٤٨ ثلاثة وسبعين في المئة من مجموع إيراد الموازنة . وهكذا ضمنت جل الغنم للافرنسيين وأعفتهم من الغرم ونظمت بهذا الاسلوب الباغي استنفاد ما في أيدي التونسيين من قليل الايراد .

- ٧ -

التعليم

ومع ضخامة أرقام الموازنة حيث بلغت سنة ١٩٤٨ نحو عشرة مليارات من الفرنكات فإن حظ المرافق العامة وخاصة المرافق العائدة للتونسيين ضئيل جداً .

فلا يحظى من اطفال العرب الذين هم في سن التعليم بمقاعد في مدارس الحكومة إلا عشرهم او اقل . ففي سنة ١٩٤٧ مثلاً كان عدد هؤلاء نحو ستين الفاً في حين يقدر عدد الذين هم في سن التعليم بسبعمئة الف ، لأن عدد التونسيين نحو ثلاثة ملايين ونصف . هذا في حين أن عدد أبناء الاوروبيين الذين هم في مدارس الحكومة المخصصة لهم كان في هذه السنة نحو ستة وخمسين الفاً والاوروبيون يبلغون نحو ربع المليون ! ومنهج التعليم في المدارس الحكومية العربية إفرنسي صرف لا يكاد يوجد فيه للعربية والدين الاسلامي مكان تمشياً وراء فكرة تغيير الوجه العربي الاسلامي من تونس وجعله إفرنسياً .

وتضع السلطات شتى العراقل في سبيل محاولات التونسيين لتلافي النقص والخطر بجهودهم الخاصة على سوء حالتهم المادية وضعف وسائلهم . وقصارى ما امكنهم إنشاء عدد محدود من المدارس الابتدائية في المدن وبعض الكنائس الأولية في القرى والبوادي لا تتلافى إلا شيئاً ضئيلاً من ذلك النقص والتقصير . ومع انه يوجد بعض المدارس الثانوية في تونس إلا ان جل مقاعدها مخصص للافرنسيين كما ان منهجها إفرنسي ومكان العربية فيها ضيق جداً ولولا المدرسة الصادقية الثانوية التي تعيش على اموال الوقف لما كان هناك شباب تونسي مثقف بعض الشيء بثقافة عربية اسلامية . وليس في تونس تعليم عال . وتوضع العراقل الكثيرة في وجه الذين يرغبون في إرتياد مناهله في اوروبا . وكل ما في الامر ان السلطات تسمح لبعض الشبان بالسفر الى اوروبا . في نطاق ضيق وشروط عسيرة .

وعناية السلطات بالمرافق الصحية والاجتماعية بالنسبة للعرب لا تخرج عن هذا الاطار وتلك الفكرة مما تبدو مظاهره وآثاره في انتشار امراض السل والتراخوما والبطالة وسوء السكن والغذاء وضعف البنية والحياة البائسة التي يتركس فيها السواد الاعظم منهم ...

التجنس

وقد فتح باب التجنس للتونسيين لتحويلهم الى رعايا افرنسيين كوسيلة من وسائل الهدف الذي استهدفوه ، وجعلته مغرباً بالمنح والامتيازات وميسراً بأخف

الشروط ، في حين حرم على الأجانب التجنس بالجنسية التونسية ؛ حتى لقد اصدر
تشریح بقضي باخراج الاجانب الذين ولد اجدادهم في تونس من الرعية التونسية
والحاقهم بالجنسية الافرنسية !

وقد نشط كذلك التبشير في اواسط المسلمين وخاصة قراهم وباديتهم كوسيلة
اخرى من وسائل ذلك الهدف هدف تبديل وجه تونس العربي المسلم ، وبسرت الوسائل
والحماية لبعثاته ومنحت المساعدات المالية الكبيرة ..

وقد انشئت كتائب تونسية تحت قيادة الافرنسيين وتنظيمهم على أساس التطوع
والاغراء ، وكان عددها يزداد حين الحاجة . وكثيراً ما حاربت الى جانب الافرنسيين
في اوروبا وغيرها ، واستخدمت في مصالحهم ومآربهم الاستعمارية . وقد جعلت
هذه الطريقة وسيلة اخرى من وسائل ذلك الهدف حيث يكاد المتجنند احياناً في
حياته الطويلة التي يجيهاها في الوسط الافرنسي والنظام الافرنسي ينسى لغته ودينه
وعاطفته !

- ٨ -

النضال الوطني

ولقد ابى التونسيون كما قلنا ما اريد لهم ولبلادهم من استعمار واذلال وارهاق
وتبديل وجه ودين ، فأخذوا منذ بدء النكبة يقفون موقف المناوىء المناضل
ويقومون بالحركات الوطنية الثورية . وقد ذكرنا ما كان من ثورات عنيفة في
السنة الاولى من الاحتلال ، وما كان من ثورة ابن خليفة التي امتدت ثلاثين عاماً في
المنطقة الجنوبية ولم تفت إلا في سنة ١٩١٠

زعامة علي باش

ولقد اخذت حركة المقاومة والنضال تدخل في نطاق التنظيم الوطني منذ بدء
القرن الحالي ؛ وكان من اول من تولوا زعامة الحركة الوطنية الزعيم علي باش . ومن

ايوز واقدم حوادث هذه الحركة مظاهرات عام ١٩١١ وما كان فيها من اشتباكات دموية بين الجماهير وقوى الاحتلال بسبيل الاحتجاج على عسف السلطات الفرنسية. وقد أعلنت السلطات الفرنسية بمناسبة الأحكام العسكرية التي ظلت البلاد تحت كابوسها إحدى عشرة سنة؛ واضطر الزعيم وكثير من أنصاره إلى الفرار إلى خارج البلاد وخاصة إلى الأستانة فأصدرت السلطات أمراً بمنعهم من العودة إلى وطنهم. وفي أثناء الحرب العالمية الأولى اعتقل أكثر من بقي من رجال الحركة أو الذين يمتون إليهم. ومع ذلك فقد ثار سكان الجنوب ثانية عام ١٩١٥ وخاصة قبائل بني زبد ثورة عنيفة استمرت سنتين وكلفت الافرنسيين كثيراً من الجهد والخسائر والضعايا.

الحزب الحر الدستوري وزعامته الثعالبي

وعقب هدنة الحرب العالمية نشأ الحزب الحر الدستوري واضطلع منذئذ بالحركة الوطنية، وأخذ ينشط في سبيل تنظيم صفوف التونسيين وتوجيههم نحو غاية الحزب وهي الغاء الحماية واستعادة السيادة؛ ومن انضم إلى الحزب الامير محمد المنصف الذي ولي العرش وكان ولياً لعهدده. واخذ الزعيم الثعالبي وغيره ممن كانوا في خارج تونس ينشطون ويقدمون العرائض لمؤتمر الصلح ويبثون الدعوة إلى قضية تونس وبلقون إليها الانظار وينشرون الرسائل الخ.

واقدمت الحكومة الفرنسية ذرعاً بالزعيم الثعالبي فاعتقلته في باريس وارسلته إلى تونس للمحاكمة بتهمة التآمر مع الأعداء؛ فانثار هذا العمل هياج الشعب، وتفاقم الحطب حتى اضطرت السلطات إلى اطلاق مراح الزعيم، وحينئذ تولى بنفسه قيادة حركة الحزب التي اخذت تقوى وتعم وتندد بانفجار عام.

وتشجع الباي محمد الناصر فأخذ يؤيد مطالب الشعب ويهدد بالتخلي عن العرش إذا لم تستجب فرنسا إليها، وتوترت الحالة بينه وبين المقيم العام حتى ارسل هذا قوة حاصرت القصر وكان ذلك عام ١٩٢٢ فهاج الشعب ايضاً وقام بمظاهرات عامة في كافة المدن التونسية حتى اوشك الحال ان ينقلب إلى ثورة عاصفة فاضطرت السلطات ثانية إلى النكوص والتهدئة، وقطعت وعوداً صريحة بإجابة المطالب الوطنية. وقد

زار ميلران رئيس الجمهورية الافرنسية تونس بسبيل التهذئة ايضاً .

غير أن فرنسا لم تلت ان اخلفت بوعودها واخذت تسلك سبيل القمع، فعمطت الصحف الوطنية، ومنعت الاجتماعات العامة، واعتقلت عدداً كبيراً من رجال الحركة وشبابها. واستطاع بعضهم ومن جملتهم الزعيم الثعالبي الافلات. وكانت فترة خدمت فيها الحركة الوطنية بعض الشيء نتيجة للاضطهاد الباغي ونشئت رجال الحركة وقادتها. ولقد اجتمعنا مراراً واحياناً مدة طويلة مع الزعيم الثعالبي في فلسطين اثناء زيارته لها وإقامته فيها، فكنا نسمع ما يدمي القلب من بلاء تونس الشهيدة وشدة قسوة فرنسا ومجانبتها كل حق ومنطق في ما كانت تنتهجه من مناهج وتتصرف من تصرفات بسبيل تحقيق هدفها الباغي.

الحزب الحر الرسنوري بزعامه ابي رقيه

على ان الحركة لم تلبث ان انبعثت من جديد على يد الشباب الذين اخذوا ينشطون ويملاون الفراغ، وانبعثت خاصة في عام ١٩٣٠ بسبب حادثين وقعوا فيه. فقد عقد الافرنسيون مؤتمراً تبشيراً للنظر في نشر النصرية في تونس وسائر بلاد المغرب العربي، وكان من استهتارهم ان وصفوه كحلقة من سلسلة الحروب الصليبية التاسعة. وقد اخذت السلطات الافرنسية تستعد لحفلات كبيرة تقام بمناسبة مرور خمسين عاماً على احتلال تونس. فتداعى الوطنيون الى مؤتمر كبير قرروا فيه استنكار العمليين واستطاعوا ان ينشروا دعاية واسعة ضدّها ويؤلبوا الرأي العام عليها، بما اضطر السلطات الى العدول عن إقامة حفلات ذكرى الاحتلال. ولكنها لم ترد ان تبدو مهزومة فاعتقلت فريقاً من الشباب وقدمتهم للمحاكمة فنارت نائرة الشعب وقامت مظاهرات صاحبة فجنحت ثانية الى المسيرة وافرجت عن المعتقلين والفت محاکمتهم. فكان هذا بما قوى نشاط الحركة الوطنية الجديدة التي ترأسها الزعيم ابو رقيه.

وقد اهتمت السلطات سنة ١٩٣٢ لتشجيع حركة التجنس واستصدرت فتاوى من رجال الدين الموالين لها بأن التجنس لا يخرج عن الدين فتصدت الحركة الوطنية

لهذه المحارلة وعاظدها الشعب فضرب بفتاوى المشايخ عرض الحائط واخذ يمانع في دفن المتجنسين في مقابر المسلمين، وادى الموقف الى اشتباكات عديدة نفخت كذلك في الحركة الوطنية روحاً وقوة حتى ان السلطات اضطرت الى انشاء مقابر خاصة بالمتجنسين بما عد نصراً عظيماً للحركة الوطنية . وكان من اثر الضغط الروحي العام ان اخذ المتجنسون يطالبون بالعودة إلى تونسيتهم .

- ٩ -

الميثاق القومي وأثره

وقد أعيد تنظيم الحزب الحر الدستوري من جديد . وعقد القائمون بأمره مؤتمراً في عام ١٩٣٣ وضعوا فيه ميثاقاً قومياً يتضمن تحرير البلاد من الافرنسيين وإستقلالها إستقلالاً تاماً ؛ وصار هذا الميثاق هو شعار الحركة الوطنية منذئذ . وقد سارعت السلطات إلى حل الحزب ؛ غير أن الوطنيين لم ينهزموا فعدوا مؤتمراً ثانياً عام ١٩٣٥ وخرجوا منه بتنظيم حزبي جديد يقوم على أسس شعبية ونشطوا في عقد الاجتماعات العامة والتطواف في المدن والقرى والبوادي . وقد جاء في هذه الظروف مقيم إفرنسي عام فحاول تخدير الشعب بما اظهره من إستعداد للتوسعة على الحريات ولكن الحزب ظل متمسكاً بالميثاق القومي فلم يلبث المقيم العام أن تكص على عقبيه وسار في سياسة مضادة لما اظهره ، وقرر القضاء على الحركة الوطنية ، فاعتقل أبرز أعضائها وقادتها ونفاهم إلى الصحراء الجنوبية ، فأثار هذا العمل الشعب وعمت الاضطرابات البلاد .

القمع والنضال السري

واعلن الاضراب وحدثت اشتباكات دموية . وركبت السلطات رأسها فاشتدت في القمع والاضطهاد والارهاب فكانت محنة قاسية استمرت نحو سنتين دون انقطاع فلما أجد الجوالدولي بالتجهم بسبب تنمر موسولينبي استبدل المقيم العام،

فجنح الجديد الى التخفيف فأطلق سراح المعتقلين ووسع على الناس في الحريات ؛
فتمكن الحزب من استكمال تنظيم صفوفه في هذه الفرصة ؛ وانتشرت شعبه
بسرعة كبيرة في مختلف أنحاء البلاد ، ورافقها حركة تشكيلات الكشافة والنقابات
تحت لواء الحزب ، فأصبح الشعب جميعه تقريباً متكئاً في تشكيلات الحزب .
وعمدت فرنسا الى سياسة التخدير فأرسلت أحد وزرائها لدرس الحالة وأعلن ضرورة
إصلاح الادارة ؛ ولكن الوعد ظل حبراً على ورق وظلت القافلة تسير وفق المنهج
الاستعماري المرسوم ، فدعا الحزب الى مؤتمر ثالث عام ١٩٣٧ تقرر فيه خطة
المقاومة والعنف ؛ فقابت فرنسا القرار بالقمع والتنكيل واخذت تعتقل رجال
الحزب أثناء تجولاتهم وتمنع الاجتماعات العامة ، فأدى هذا الى صدام ثم الى اشتباكات
دامية واسعة المدى عام ١٩٣٨ ، وقامت مظاهرات عامة ظهرت فيها قوة الحزب
واشدت السلطات في القمع والمطاردة والاعتقالات ، واعلنت الأحكام العرفية
وغصت السجون والمعتقلات بالوطنيين وانتشر الجيش يبعث فساداً في البلاد ،
ويعتدي على الناس في الشوارع وينتهك حرمانات البيوت . غير أن هذا لم يكن
ليقضي هذه المرة على الحركة التي شملت جميع الطبقات وقويت شعنتها ؛ فاستمر
للكفاح وأخذ يصطبغ بصبغة عنيفة لم تعرف من قبل ، وكان يزداد قوة كلما
أزدادت السلطات بالعسف والبطش ؛ وكانت اضطرابات ووقائع دموية شديدة
بالرغم من الأحكام العسكرية واعتقال الألوف واستمرار سياسة التنكيل والارهاب
وقد عمد من استطاع النجاة من رجال الحزب الى التنظيم السري ونشر
الاذاعات السرية لاذكاء الروح الوطنية ، وكان تنظيمياً قوياً وثيقاً يدل على تصميم
القائمين به وبراعتهم . وارسلت فرنسا لجنة تحقيق نيابية تقدم اليها وفود البلاد
بطلب اطلاق سراح المعتقلين وتحقيق مطالب الشعب . وقد استمرت هذه الحركة
القوية التي بدأت قبل الحرب العالمية الثانية بالرغم من اعلان الحرب .

بعد انهيار فرنسا

وبلا انهيار فرنسا جنح عمالها الى التهاون والمسايرة بعض الشيء فتنفس الناس

الصعداء ورأى الوطنيون ان الوقت قد حان لاعلان بطلان الحماية والمناداة باستقلال تونس . وقدم الحبيب تامر الذي تولى التنظيم السري أثناء موجة الارهاب الشديدة غريضة للباي يطلب فيها إعلان سقوط الحماية واطلاق سراح المعتقلين في البلاد وفي فرنسا كما هيئت عرائض بمائة مسن مختلف الطبقات وحملتها وفودهم ، فاعتقلت السلطات الوفود قبل مقابلتهم للباي فجدد هذا حالة التوتر وبدأت حركة تخريبية وثورية قوية ، فاعتقلت هيئة الحزب فقامت مقامها هيئة ثانية فاعتقلت فقام مقامها هيئة ثالثة وظلت الحركة نشيطة والاضطرابات مستمرة .

- ٩ -

وفي سنة ١٩١٢ ارتقى العرش محمد المنصف الذي هو مسن اعضاء الحزب الدستوري فتعززت الحركة الوطنية كثيراً . وقد قدم الى حكومة فيشي طلباً باحترام السيادة التونسية وإجابة رغائب الشعب التي كانت أصواته ترتفع بالمطالبة بها فوعده بالانجاز ولكنها لم تف . وكان هذا من أسباب تبييت الغدر له . ونزلت في هذه السنة جيوش المحور إلى تونس بمساعدة القادة الفيشيين ، وقام المعتقلون بحركة تمرد ، وتمكنوا من فتح باب السجن ولكنهم لم ينجحوا في حركتهم . وقد سايرت السلطات الموقف فأطلقت سراحهم كما اطلقت سلطات المحور سراح المعتقلين في فرنسا ومنحتهم حرية الانتقال ، فذهب بعضهم الى ايطاليا والمانيا ، وكانت فرصة عظيمة للحركة الوطنية في داخل البلاد وخارجها ازدادت فيها قوة ونشاطاً وأملاً وانطلاقاً ونضامناً . وحاول الباي أن يخطو الى تحقيق المطالب القومية بنفسه ، ولكن الخطوة عثقت بإحتلال الحلفاء تونس وصيرورتها ميداناً من ميادين الحرب بين الحلفاء والمحور .

ووجدت السلطات الافرنسية الديقولية التي برزت تحت جناح الحلفاء والتي سمحت نفسها بفرنسا الحرة كذباً وزيفاً الفرصة سانحة للقضاء على الحركة الوطنية فخلعت الباى ونفته وقامت بحركة قمع إجماعي في كافة أنحاء القطر ، وأعدمت المئات بدون محاكمة كما القت بالالوف في غياهب السجون والمعتقلات النائية للارهاب وإثارة الرعب .

على ان الشعب لم يبين والحركة لم تجسد ، وقامت ثورات مسلحة في بعض الانحاء لتعبر عن ارادة تونس الحرة المناضلة وان لم تستطع زلزلة الافرنسيين عن جورهم وغدرهم ، ولا سيما منهم قوا وابطا احزبه الحلفاء من نصر على المحور واستعادوا بعض ما كان لفرنسا من مكانة بينهم .

- ١٠ -

وفي سنة ١٩٤٥ استطاع بعض قادة الحزب الافلات من تونس الى مصر متحملين اقسى ما يمكن ان يتحملة امرؤ في سبيل وطنه وأخذوا ينشطون فيها في سبيل الميثاق القوسي .

ولقد استمرت السلطات على نهجها في البطش والقمع للقضاء على الحركة دون ما خجل ولا تورع بما اذاعته فرنسا وحلفاؤها من مبادئ الحرية ومناهضة الاستعمار واغض الحلفاء أعينهم عن هذا الجور الرهيب لان اكثرهم كان كاذباً مضللاً فيما يذيعه . وقد تكررت الاضطرابات في تونس ضد ذلك الغدر وهذا الاغراض .

المؤتمر الكبير والميثاق القومي

وعقد رجال الحركة سنة ١٩٤٦ مؤتمراً شهده عدد كبير من علية القوم ورجال الحركة وجددوا العهد لميثاقهم بإعلان بطلان الحماية والكفاح في سبيل الاستقلال والانضمام الى قافلة الحركة العربية العامة عن طريق الجامعة العربية التي كانت قد نشأت وأخذت تمثل في دور قيامها اعداف الحركة العربية القومية ، وأخذوا وما يزالون يعملون بكل وسعهم في سبيل تحقيق ميثاقهم في الداخل والخارج دون وهن ولا كلل بالرغم مما تسلكه فرنسا فيهم من سياسة الشدة والعنف حيناً والتخدير حيناً آخر وكان من هذا الأخير التعديل المزيف الذي ادخل على نظام مجلس الوزراء الذي ظنت فرنسا انه قد يرضى الشعب مع بعده كل البعد عن رضائه لأنه لم يعد يرضى عن ميثاقه القومي بديلاً ولا ينخدع عنه باى خدعة .

وهكذا تسير تونس في سبيل هدفها القومي وتنضم الى قافلة الحركة العربية التحريرية العامة ، وتتصارع مع قوى البغي والعدوان الذي اصبح طابعاً مشهوراً للسياسة الافرنسية ، وهي صارعة له ان شاء الله بعد ان اتقدت فيها الشعلة وعمت بنورها البلاد .

الفصل الثالث

فرنسا ومراكش

- ١ -

عالم مراكش قبل النكبة

ومنذ أن أنشبت فرنسا مخالبها بتونس انصرفت إلى التفكير الجدي في الففزة الثالثة . أي إنشأب هذه المخالب بمراكش التي كانت تحرك مطامعها قديماً لتتم بذلك إحكام السلسلة التي اعتزمت على غل أقطار المغرب العربي بمخلفاتها ، وقلبها جميعاً إلى مستعمرات إفريقية .

واقدر لعبت المملكة المراكشية أو « المغرب الأقصى » حسب تسميتها العربية القديمة أدواراً عظيمة في تاريخ الإسلام وتعالية وحضارته . وفتوحاته على مختلف الأدوار ، ومنها انجبه الفاتحون الاولون إلى الأندلس وأطراف أوروبا الغربية ، وإلى أواسط افريقية كما انها ظلت تمد السلطان العربي في اسبانيا بالدم الجديد آنأ بعد آن حيث يعود أكبر الفضل إلى الدول التي قامت فيها في القرون الوسطى في بقاء ذلك السلطان نحو ثمانية قرون .

ومنذ ثلاثة قرون قامت فيها الدولة العلوية الشريفة التي ما تزال سلالتها تتربع على عرشها . وقد تقلبت الحالة في مراكش في عهد هذه الدولة بين اليسر والعسر والقوة والضعف ، واستطاع بعض سلاطينها ان يجعلوا الدولة في بعض الظروف قوية محترمة الجانب مخطوبة الود ، وأن يقفوا من مطامع الدول منها موقف الالباء والنضال المجدي .

تنافس فرنسا وإسبانيا ومطامعها

غير أنها كان يعتبرها ظروف فتور وضعف وارتباك بسبب ما كان يقوم فيها من فتن قبائلية من آن لآخر وبسبب سني الجذب التي كانت تحدث المجاعات المييدة ، فكان الطامعون يغتسمون الفرص لدس يد الفساد ، وكانت إسبانيا وفرنسا بنوع خاص أكثر الدول تبييتاً للطمع في هذه البلاد الغنية الواسعة وأكثرها ترقباً للفرص وتوثيقاً للقفزة وتحريكاً للفتن وأشدها تنافساً فيما بينها عليها . وقد استطاعت الأولى في بعض ظروف الضعف ان تستولي على بعض المراكز والشواطئ الشمالية الواقعة على البحر الأطلانطي ، وكان هذا مما أدى الى نضال مرير ومديد بينها وبين الدولة العلوية لم يكن يتججج في اجلاء إسبانيا عن جميع ما في يدها . ولقد مر بين احتلال فرنسا لتونس وفرضها الحماية على مراكش نحو ثلاثين عاماً ١٨٨٢ - ١٩١٢ لم تن فيها فرنسا عن تهمة الاسباب وتحين الفرص لتنفيذ عزيمتها وكان التنافس والتجاذب والنشاد الاستعماري بين الدول الأوروبية الكبرى على الشرق الأوسط وشمال أفريقيا قد اشند في اواخر القرن التاسع عشر فأخر فرنسا عن الوصول الى بغيتها .

المؤتمر الدولي عام ١٨٨٠

وقد تداعت هذه الدول كنتيجة من نتائج التنافس والنشاد حول مراكش الى مؤتمر انعقد في مدريد عام ١٨٨٠ لتنظيم علاقاتها بمراكش اشترك فيه احدى عشرة دولة اوروبية والولايات المتحدة الاميركية وانتهى بعماهدة فرضت على مراكش كثيراً من الالتزامات ومن جملتها دولية طنجة ، وان كانت نصت على الاعتراف باستقلال مراكش وتنام سلطانها واحترام اراضيها ، وصبغت قضية مراكش بصبغة دولية أوهمت أنها تدراً عنها شر مطامع فرنسا وإسبانيا خاصة .

اصابع فرنسا

ولكن فرنسا لم تعبأ بذلك ونشطت الى استقلال تلك الالتزامات اكثر من غيرها حيث رأت فيها الثغرة النافذة ، فأخذت ترسل عمالها الاستعماريين في شكل

بعثات طبية وتبشيرية ، وتنشئ الشركات والبيوتات التجارية مما كان من تلك
الالتزامات الممنوحة للدول على السواء . وقد استطاعت ان تحصل على طلب من
السلطات لبعثة عسكرية لتنظيم الجيش وتدريبه فكانت هذه البعثة وسيلة الى نفوذ
فرنسا العملي والرسيمي ، ثم اخذت تغري بعض اصحاب الطرق الصوفية وتعمل على
كسب ولائهم وتسييرهم في الخطة التي اخطتها بسبيل ما اعتزمت عليه من نية
الغدر ، حيث كان للطرق الصوفية ومشايخها تغلغل شديد في السواد الاعظم .

- ٢ -

الاتفاقات السرية

ولقد حرك هذا النشاط الدول ، فأخذ كل من انكلترة واطالية والمانيية
تتحفز للسير في خطط بمائة ، وحركت اسبانيا خاصة لانها رأت فيه خطراً على ما
تعده منطقة حبوية لها ، فاضطرت فرنسا الى السعي في سبيل التفاهم مع هذه الدول
وتصفية الجو والطريق لنفسها ، ونج عن هذا السعي ابرام سلسلة اتفاقات سرية
بينها وبين ايطاليا سنتي ١٩٠١ و ١٩٠٢ وافقت فيها هذه على اطلاق يد فرنسا في
مراكش مقابل حربتها في العمل في ليبيا ، وبينها وبين انكلترة سنة ١٩٠٤ وافقت
فيها هذه على اطلاق يد فرنسا في مراكش مقابل اطلاق يدها في مصر ، وبينها
وبين اسبانية سنة ١٩٠٥ تعهدت فيها هذه بعدم معارضة مشاريع فرنسا في مراكش
مقابل اعتراف هذه باحتلالها ومركزها الخاص في المنطقة المراكشية الشمالية
وتعهدتها بتسوية حدود مرضية .

ضغط فرنسا على مراكش واثره

وسارعت بعد ذلك الى خطوة ثانية فقدمت مذكرة للحكومة المراكشية
تطالب فيها بزيادة عدد أعضاء البعثة العسكرية وحصر جمع الشؤون العسكرية في
يد هذه البعثة ، وبالسماح بمراقبة الشؤون الادارية المحلية من قبل مراقبين افرنسيين

بجدة ان امن البلاد الداخلي والخارجي مما يهيمها همماً عظيماً بسبب مصالحها الاقتصادية والحدود المشتركة بينها وبين مراکش في الجنوب والشرق . غير انها اصطدمت بموقفين موقف سلطان مراکش الذي عرض المطالب على مجلس اعيان البلاد فقرر رفضها لتعارضها مع معاهدة مدريد وطلب عرضها على الهيئة الدولية ، وموقف المانيا التي تجاهلتها فرنسا حيث زار الامبراطور غليوم طنجة بمظاهرة صاحبة وصرح لممثلي الحكومة المراكشية بأنه ينظر الى السلطان على اعتبار انه الحاكم الشرعي المستقل

المؤتمر الدولي الثاني

وأدى الموقفان الى انعقاد المؤتمر الاولي في سنة ١٩٠٦ في الجزيرة كان من نتائجه تجديد الاعتراف باستقلال مراکش ووحدتها وسيادة السلطان ، وعدم الاعتراف لأي دولة بمرکز خاص فيها ، وهكذا منيت فرنسا بالهزيمة في هذه الجولة ولكنها لم تنهزم وظلت تتوقب الفرصة للتنفيذ والانقراض . ونصحت داهية الاستعمار التي لا يهيمها عهد ولا ذمة في سبيله وهي بريطانيا زميلتها بارضاء المانيا قبل أن تخطر خطوة عملية وقالت ان مؤازرتها لها والاعضاء عن قرارات مؤتمر الجزيرة منوطان بذلك .

فتنة أبي حمارة وأثرها

غير ان فرنسا لم تأخذ بهذه النصيحة واستنجدت فرصة فتنة داخلية قام بها ثائر نعت بأبي حمارة وكان يزعم أنه ذو حق في العرش فأمدته وساعدته حتى عمت فتنته البلاد واستمرت بضع سنين . وقد استفدت الفتنة طائل الاموال فاضطر السلطان المولى عبد العزيز الى الاستقراض من فرنسا واسبانيا وانكلترة ، واستغلت فرنسا الموقف فأجبرت السلطان على قبول مراقبتها على الجمارك ضماناً للأموال التي استقرضا . وحينما بلغت الفتنة ذروتها ارسلت قوة احتلت مدينتي الدار البيضاء ووجدة المجاورة لحدود الجزائر بحجة منع الفتنة عن هذا القطر وحماية حدوده ، وأجبرت السلطان على توقيع معاهدة اعترف بها بهذا الاحتلال ويحق فرنسا في التدخل في الرسوم الممركية وبقرار نظام خاص للدار البيضاء ومناطق الحدود المجاورة للجزائر واسناد ادارتها لعمال افرنسيين على ان يكون كل هذا موقفاً .

مرفف المانيا وارضاؤها

وأهاج هذا الشعب و المانيا معاً . اما الشعب فقد اتفق جبهة من رؤسائه مع المولى عبد الحفيظ اخي السلطان على نخاع الاخير واعتلائه العرش مكانه على اساس انتهاء الاحتلال والتدخل الافرنسي ، وانتهاج منهج اصلاحي شامل في الدولة ، فثار عبد الحفيظ على اخيه وتمكن من خلعها ثم أخذ فعلا في اتخاذ الاجراءات للاصلاح في مختلف المناحي من دستور وقوانين وتعليم وعمران الخ . واما المانيا فأرسلت بارجة الى ميناء اغادير كتهديد لفرنسا وطلبت من هذه ومن زميلتها اسبانيا ان تسحب قواتها الاحتلالية . وحينئذ رأت فرنسا انه لا مناص من ارضاء المانيا وتم ذلك بمعاهدة عقدت سنة ١٩١١ اعترفت المانيا فيها لفرنسا بحماية مراكش مقابل تنازل هذه لها عن بعض ممتلكاتها في افريقية الاستوائية .

نجاح المؤامرة ومعاهدة الحماية

وهكذا استحكمت حلقات المؤامرة الاستعمارية الاوروبية وسخرت الدول على اختلاف نزعاتها من معاني الحق والشرف كما نسيت معاهداتها وتوكيداتها وامتزافها بسيادة مراكش ووحدها حينئذ قال كل منها تعويضاً ، وتركت هذه وجهاً لوجه وحدها امام فرنسا ، وقد شعر الشعب بالمؤامرة فانفجرت ثورته على السلطان وضمف امر الحكومة ضعفاً شديداً فاستسجحت فرنسا الفرصة وزحفت قواها في اواخر عام ١٩١١ نحو فاس عاصمة الدولة بحجة تأمين الامن الذي هي مسؤولة عنه وفاقا للاتفاقات السابقة ثم حماية السلطان من رعيته واحتلتها ، ثم قدم الوزير الافرنسي معاهدة الحماية الى السلطان واخذ يضغط عليه توغيباً وترهيباً في ظل قوى الاحتلال التي ملأت العاصمة حتى وقعها وكان ذلك يوم ٣٠ مارس من عام ١٩١٢ .

نصوص المعاهدة ومذاها

ولقد نصت المعاهدة على انشاء نظام جديد يسمح بالاصلاحيات الادارية والقضائية والثقافية والمالية والعسكرية التي ترى الحكومة الفرنسية فائدة في ادخالها لمراكش ، وتعهد فرنسا ببذل تأييدها الدائم للسلطان وخلفائه ضد كل خطر يهدد شخصه او عرشه او يقلق امن مملكته ، وانطواء النظام الجديد على احترام التقاليد الدينية الاسلامية واستمرار تطبيقها ، وحرمة السلطان ومكانته المعتادة ، وصيانة المنشآت الاسلامية والوقفية ، وتحويل فرنسا بمفارقة اسبانيا والاتفاق معها على تنظيم مركزها في القسم الشمالي من البلاد ، وموافقة السلطان على احتلال فرنسا لكل مكان ترى إلى احتلاله ضرورة لاستتباب الامن وضمان حرية التجارة ، وحق فرنسا بمزاولة كل عمل من اعمال الحراسة البرية والبحرية في المياه المراكشية ، وواجب السلطان وخلفائه بإصدار الاوامر التي يقتضيها النظام الجديد طبقاً لاقتراحات الحكومة الفرنسية ، وتمثيل فرنسا لدى السلطان بقمم عام مفوض ومسئول عن تنفيذ المعاهدة يكون في ذات الوقت هو الوسيط الوحيد بين السلطان وحكومته وبين الممثلين الأجانب والمكلف بجميع القضايا التي تمهم الاجانب في المملكة المراكشية وصاحب الحق في المصادقة باسم الحكومة الفرنسية على كل امر يصدر من السلطان والاذن بنشره ليصبح نافذاً ، ورعاية مصالح مراكش ورعاياها في الخارج من قبل ممثلي فرنسا السياسيين وقناصلها ، وتعهد السلطان بعدم عقد اي عقد ذي صبغة دولية دون موافقة سابقة من فرنسا ، وامتناعه عن عقد اي قرض عام او خاص او منح اي امتياز على اي شكل دون موافقة سابقة من فرنسا كذلك ، وتنظيم الشؤون المالية بضمان الخزينة وجباية مداخيل الدرلة من قبل خبراء افرنسيين مع رعاية الحقوق الخولة لحاملي سندات الدين المراكشي العام .

والنصوص العجيبة الفظيعة التي تمنح فرنسا بها لنفسها حق التصرف المطلق في البلاد وتجعل مقيمها العام فوق السلطان وتقيده هذا بحيث لا تجيز له اي حركة او عمل إلا بموافقة هذا المقيم ، بل والتي تجاوزت في صراحتها وبعد مداها النصوص

المفروضة على تونس والجزائر مع اتحاد الجوهر والقصد لا تدع شكاً في انها املتت بالقوة والاكرام والحديعة ؛ كما ان موقف السلطان عبد الحفيظ يزيد ذلك حيث ثارت ثائرتة حينما عرضت عليه ورفض التوقيع عليها . قائلًا انه يأنى ان يبين نفسه بنفسه ، وأخذ يفند النصوص ويتساءل عن الضمانات التي تقدمها فرنسا بشأن التقاليد الإسلامية . غير انه وجد نفسه امام تهديد ظن انه سيكون اوخم عاقبة على بلاده فوقع المعاهدة كارهاً تفادياً لهذه العاقبة ، ثم انسحب من العرش عقب توقيعها . وقد احتوى نص تنازله اشارة صريحة الى ظروف التوقيع ونتائجها حيث جاء فيه : لقد رأينا أنفسنا عاجزين عن القيام بواجباتنا التي يجب ان تقوم بها كمدك نحو شعب فقررتنا التنازل ...

- ٥ -

ثورة فاس ضد المعاهدة

ولقد كان وقع المعاهدة والاحتلال على الشعب شديداً صاعقاً ، اهاجت ثائرتة وجرحت كبرياءه ، وكان من نتيجة ذلك ان انقض الجنود المراكشيون ليلة ١٧ - ١٨ نيسان ١٩١٢ على ضباطهم الافرنسيين وقتلوهم وكانوا ثمانية وستين ضابطاً . ثم خرجت الكتائب المراكشية فاستولت على معظم المدينة واخذ الجنود يتعقبون الافرنسيين في العاصمة (فاس) ويفتكون بهم وانضم اليهم الاهالي هايجين صاخين ليعبروا عن شعور الألم الشديد الذي ألم بهم ، وسادت الفوضى في العاصمة في الايام التالية ، وكان ذوي الرصاص يلعلع فيها ليلاً ونهاراً ، وازداد الحرج والفوضى عندما أخذت القبائل المجاورة تزحف على العاصمة لتشترك مع البائسين في الفتك بالمغزاة البغاة .

وهلعت فرنسا من الانخباء ورفعت عيداتها واختارت اصلها واقساها وهو المارشال ليوتي الذي يعد سفاح مراكش الباغي وارسلته قائداً ومقياً عاماً ، وجاء بموكب عظيم تعمد اظهار الابهة والارهاب ، ودخل فاس في اواسط شهر ماي سنة ١٩١٢ دخول الغازي المطمئن ، فكان دخوله بمثابة صب الزيت على النار حيث استتد

لهيب الثورة في كل مكان في العاصمة وحاصرتها القبائل الثائرة ، وكانت الفرق الافرنسية تنهزم واحدة بعد اخرى حتى لقد حدث المارشال نفسه بالانسحاب ، ولكن المدفعية استطاعت ان تنقذ الموقف وتفك الحصار فأدى هذا الى خمود النار في فاس .

ثورات الجنوب

غير ان روح التمرد والألم كانت قد سرت في انحاء البلاد الاخرى فثار الشيخ ماء العينين وابنه الهبة في الجنوب واكتسحه واحتل في آب ١٩١٢ مدينة مراكش وبدأ يستعد للزحف على منطقة الشاوية . ومع ان الجيش الافرنسي انتصر على جيش الشيخ وأرغمه الى الانسحاب من مراكش إلا ان حركة التمرد والمقاومة بفضل دعوة الشيخ ظلت مستمرة الى سنة ١٩٣٥ .

وكذلك ثار الزعيم موسى وهو في منطقة تافيلالت في اقصى الجنوب في نفس الظروف وكانت ثورة عسكرية قوية واسعة كلفت الافرنسيين كثيراً من الجهد والتضحيات ، وانهمزت فيها بضع حملات ، ومع ان الافرنسيين دبروا اغتياله فإن حركته لم تحمد حيث خلفه على رأسها ابو القاسم النقادي الذي استطاع ان يستمر في تمده ومقاومته الى سنة ١٩٣٥ أيضاً .

وفضلاً عن هاتين الثورتين الكبيرتين والمديدتين فقد شبت ثورات عديدة في مناطق مختلفة من البلاد وخاصة في مناطق جبال الأطلس واستنفدت من الافرنسيين الجهد العظيم والدماء الغزيرة ، وكانت كلها خمدت واحدة شبت اخرى الى سنة ١٩٣٣

تنازل السلطان عبد الحفيظ

ولقد كان السلطان عبد الحفيظ شديد الألم من الموقف . وكان الشعب يعرف انه اجبر على المعاهدة إجباراً فلم تنزل مكانته في نفوسهم . فرأى ليوتي ان يستغل هذه المكانة فحاول تهدئة السلطان واستدراجه بالدين ، وهدده بالواسطة بفقد عرشه إذا لم يتضامن معه على تسيير الامور ، ولكنه ابى ان ينقاد اليه وأعلن عزمه على

مغادرة مراکش وانتقل الى ميناء الرباط بسبيل ذلك بعد ان اسمع لبوتي فارص النقد وحذره من النتائج الخطيرة التي تترب على سياسة البغي التي انتهجها الافرنسيون ، ووقع وثيقة التنازل عن العرش وغادر البلاد في ١١ آب ١٩١٢ ، وخرج اهل المدينة زرافات ليلقوا آخر نظرة على الملك الذي آثر ان يقضي بقية عمره في المنفى على ان يحتفظ بالعرش ويساهم في ما يُبَيِّتُ لبلاده من غدر وعسف ، وخلفه اخوه المولى يوسف الذي قبل ان يمثل مع الافرنسيين الدور الذي اباه اخوه .

نكبة تقسيم مراکش رسمياً

ولقد نصت المعاهدة المفروضة على تخويل فرنسا تنظيم علاقة اسبانيا بمراكش ومركزها ١٠ لم يكن يوماً ما شرعياً وظلت مراکش تكافحه في كل مناسبة فكانت نكبة مراکش بهذا النص مزدوجة تقسيم واستعمار . وقد جرت المفاوضات بين الدولتين الباغيتين وانتهت بعقد معاهدة في مايننها في تاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٢ نصت على بقاء المنطقة الشمالية التي تبلغ مساحتها نيفاً وعشرين الف كيلومتر مربع تحت الاحتلال الاسباني على ان تكون داخلة في نطاق سيادة السلطات الدينية والمدنية يمثلها فيها خليفة عنه ، يختاره من مرشحين تقدمها اسبانيا له ، ويكون لاسبانيا ما لفرنسا في المنطقة الجنوبية فيتمثلها في الخارج وتدخل ماتراه من نظم واصلاحات ، ويكون لها مقيم عام لهمن الصلاحيات ما للمقيم الافرسي العام في المنطقة الافرسيية .

ومنذئذ وفرنسا في معظم البلاد المراكشية واسبانيا في المنطقة الشمالية منها تطبقان مناهج استعمارهما المظلمة التي تماثل ما يطبق منها في الجزائر وتونس ، وتحكمات البلاد بالحديد والنار وتقمعان كل حركة نضالية او وطنية بكل شدة وفسوة ، وتقبضان على مصالح البلاد ومرافقها بيد استعمارية جشعة ، وتستغلان خيراتها لصالح رعاياهما وتحولان دون اي تقدم جدي علمي او اقتصادي او عمراني في البلاد وتحاربان العروبة والاسلام فيها حرباً شعواء ، وتبثان روح الوهن والفتنة والفرقة بين طبقات الاهلين تحقيقاً للهدف الباغي اللئيم وهو تبديل وجه البلاد وهدم كيانها القومي وقلبها الى مستعمرتين افرسيية في الجنوب واسبانية في الشمال لغة

ووجهاً ودينياً واستثماراً .

ولقد كانت مراکش قبل النكبة دولة مستقلة ذات سيادة تامة لها فوائنها ووزراؤها وحكامها وهيئاتها الشورية وسفراؤها وقواها البرية والبحرية وحركتها العلمية والعمرائية والزراعية والاجتماعية التي اخذت بالسير في المدة الاخيرة في سبيل التحسن ، فانجه اهتمام الافرنسيين والاسبانيين الى وقف ذلك كله ، وإنشاء جهاز يقوم على موظفين منهم ويسير في تحقيق الهدف الاستعماري الباغى الذي استهدفوه بأسرع ما يمكن من الخطى .

شخصية المقيم العام المزدوجة

وكان اول ما فعله الافرنسيون ان استصدر المقيم العام مرسوماً من السلطان الذي نصبه باعتباره الوسطة الوحيدة بينه وبين الدول الاجنبية ، والقائد الاعلى للقوى البرية والبحرية . فعدا بذلك ذا شخصية مزدوجة ، افرنسياً يمثل دولته ، ومراكشياً تمثل فيه هذه المهام المراكشية ! ونتيجة لذلك الغيت وزارات الشؤون الخارجية والحربية وقصرت الحكومة المحلية ووزاراتها على الشؤون الادارية ، وانشئت في دار الاقامة العامة مكاتب - سياسية ومدنية وعسكرية لمساعدة المقيم العام في مهامه المزدوجة !

تسكيدات الادارة

ثم انشأوا ثلاث هيئات لتتولى بالفعل إدارة الدولة . وهي امانة السر العامة للحماية والادارة العامة للشؤون الشريفية ومصالحة الادارة الأهلية . وجميع رؤساء وموظفي هذه الهيئات افرنسيون وهي مرتبطة بالاقامة العامة .
والهيئة الأولى تشرف على الشؤون التشريعية بحيث لا يعد اي شيء منها نافذاً ولا يصدر اي تشريع إلا عن طريقها وبمصادقة امينها العام .
وتقوم الثانية بتنسيق الأعمال بين الاقامة العامة والسلطان وحكومته . ويلقب

رئيسها بلقب المستشار ويشهد اجتماعات مجلس الوزراء ، ويتفرع عنها خمسة اقسام للشؤون المالية والاقتصادية والصحية والتعليمية والاشغال العامة ، وهي التي تهىء كل ما يقتضى تنفيذه من اعمال ومشاريع متصلة بهذه الشؤون وترسلها الى مجلس الوزارة لاقرارها وتقوم بعد ذلك بمراقبة التنفيذ. ثم هي التي تختار موظفي الحكومة او تبدي رأيا فيها فيما الذي يكون هو الأصل والنافذ دائماً .

وتضطلع الثالثة بالشؤون المدنية العامة من صحافة وطباعة وجمعيات واندية وعمال واجتماعات وبلديات واتصالات شعبية . وهي كذلك تهىء كل ما ترمى تنفيذه من اعمال ومشاريع متصلة بهذه الشؤون وترسلها الى مجلس الوزراء لاقرارها وتقوم بعد ذلك بمراقبة التنفيذ .

اصابع ومخاطب الغفل واليهام البربرية

ولهذه الهيئة شبكة منتشرة في جميع انحاء البلاد وقد استطاعت ان تستصفي لها اولياء في مختلف الاوساط وخاصة من بين رجال الطرق الصوفية الذين كان الافرنسيون يستخدمونهم في مآربهم قبل النكبة وظلوا على صلة بهم ، وبواسطة هذه الشبكة والاولياء والمأجورين يتغلغل الافرنسيون بطريق هذه الهيئة في داخلية البلاد وخصائص امور اهلها وتوطيد اقدامهم في الاماكن النائية ، وخاصة في القبائل البربرية .

وقد كان من اول ما أوجت به هذه الهيئة استصدار ظهير (مرسوم) من الملك في سنة ١٩١٤ سجل فيه اعترافه بجنس بربري يفترق عن الجنس العربي وبعادات وتقاليد بربرية تفترق عن العادات والتقاليد العربية والاسلامية وبضرورة تنظيم شؤون البربر وفقاً لعاداتهم وتقاليدهم الخاصة تدريجياً وحسب مقتضى الظروف وكان هذا الظهير قدسنا رسمياً للخطة اللثيمة التي بيئتها السلطات الافرنسية للتفريق بين الشعب المراكشي وإثارة نعراته ، وسلخ القبائل البربرية عن الاسلام والعروبة التي اندججت فيها منذ الاحقاب الطويلة ، وتهيئة الجو للتبشير بالنصرانية بينها مرفقا بدعاية أصل البربر الاوروبي وديانتهم المسيحية وكون العروبة والاسلام

أجانبين عنهم وليسوا الا وسيلة تحكم واستعمار فيهم جاءت فرنسا لتخليصهم منها !
وهي نفس الخطة التي سارت عليها السلطات الافرنسية في الجزائر على ما ذكرناه
في مناسبة سابقة .

وقد استصدرت هذه الهيئة في سنة ١٩١٥ ظهيراً جديداً بسبيل تنفيذ تلك
الخطة يقضي بتأليف هيئات قبائلية باسم الجماعات كما فعلت السلطات في الجزائر من
قبل للنظر في شؤون القبائل وفق تلك العادات والتقاليد ، وجعل لكل جماعة
سكرتير إفرنسي ليكون الموجه النافذ في مختلف شؤون القبيلة وفقاً للمنهج الذي
ترسمه له .

المراقبون الافرنسيون في جانب الحطام

ولقد كانت مناطق البوادي تدار برأسة عامل مراكشي يلقب بالقائد ومناطق
المدن تدار برأسة عامل مراكشي يلقب بالباشا . فأقام الافرنسيون إلى جانب كل
من القواد والباشاوات مراقباً إفرنسيا صار هو الحاكم المطلق في المنطقة ، بحيث
أنيط به مراقبه جميع الشؤون وحظر على الباشاوات والقواد اتخاذ أي قرار أو
القيام بأي عمل بدون موافقته .

الادارة المباشرة في المناطق المرهبة

ومع ذلك فقد توزعوا ثماني مناطق من يد العمال المراكشين واناطوها بحكام
افرنسيين . وهذه المناطق الثمان هي اهم ولايات مراكش وعمالاتها من حيث
السكان والثروة والنشاط ، فجعلت الادارة والسيطرة فيها بيد الافرنسيين مباشرة .
ولقد جعل اربع منها عسكرية واربع منها مدنية ، وأنيطت العسكرية بحكام
عسكريين يقوم الى جانبهم نواب مدنيون ويساعدهم هيئات اركان حربية ومكاتب
إستعلامات يقوم عليها ضباط ؛ وجميعهم أفرنسيون ؛ وأنيطت المناطق المدنية
بحكام مدنيين يقوم الى جانبهم نواب عسكريون ويساعدهم هيئات ومكاتب
إستعلامات ، وجميع الذين يتولون هذه الامور افرنسيون كذلك . وقد قسمت

كل هذه المناطق الى أقاليم والاقاليم الى دوائر ، وأنبطت الفروع وفروع الفروع
بمحكام ومساعدين وهيئات ومكاتب استعلامات ايضا ، وجميع الذين يتولونها
إفرتسيون أيضا ..

وقد كان محكام المناطق العسكرية والمدنية وكذلك المراقبون الإفرتسيون
الذين أقيموا الى جانب القواد والباشارات في مناطق المدن والبادية الأخرى
يمثلون المقيم العام ؛ وبصفتهم هذه كانوا يشرفون على قوى الأمن والشرطة والحباله
المراكشيه مباشرة ...

الموظفون الإفرتسيون

وفضلا عن كل هذا فقد سارا الإفرتسيون على خطة استبدال الموظفين المراكشيين
بالموظفين الإفرتسيين وخاصة أصحاب الوظائف المهمة ففقدت مراكش كشيقيتها
مستعمرة موظفين حيث بلغ عددهم (٢٢٠٠٠) من مجموع (٣٧٠٠٠)؛ وقد اختص
الموظفون الإفرتسيون بالمرتبات العاليه والعلاوات المتنوعه باسم الاغتراب والامرة
والمسكن وغدت اللغة الإفرتسية بطبيعة الحال السائدة في الدواوين والاعمال ،
فكان في ذلك مضافا إليه طبيعة الصلف والغرسة وحب استثمار الوظيفة المتمكنة
في الموظف الإفرتسي كابوس شديد على صدور الأهلين يعطل مصالحهم ويشير
الأمهم وحسراتهم .

دور ضباط الاستخبارات

وقد كان ضباط الاستعلامات الذين انشروا في كل ناحية من أنحاء البلاد
وتشكيلاتها والذين زاد عددهم عن الثلثة كابوسا شديداً اخر لما كانوا يحيطون به
الناس من الرقابة ويثونه فيهم من الدسائس وينصبونه لهم من المكائد ويثرونه
من النعرات ويستصفونه من الانصار والمأجورين بسبيل الفتنة والفرقة والدس ،
وغدوا عماد السلطات الإفرتسية في السياسة المحلية واصحاب الكلمة المسموعة في
المناطق والاقاليم والدوائر .

ولقد انشئ في البلاد خمس عشرة بلدية جميع رؤسائها افرنسيون ، حتى بلديات المدن التي ليس فيها افرنسيون . وكل ما جعل للمراكشيين فيها هو مساعدون الى جانب الرؤساء الافرنسيين هم الى الآلة والصورة اقرب منهم الى الحقيقة والأثر .

غرف الزراعة والصناعة والتجارة الافرنسية

وقد انشئ منذ عهد مبكر في كل منطقة غرف للزراعة واخرى للصناعة والتجارة ، حصرت عضويتها في الافرنسيين ، وكان اعضاؤها يعينون تعيينا ثم صاروا ينتخبون انتخابا من قبل الزراع والصناع والتجار الافرنسيين . وتقدم هذه الغرف التقارير واللوائح للسلطات في مختلف الشؤون الصناعية والزراعية والتجارية وخاصة من نواحي الاساليب الاستثمارية والاستعمارية ، مما ينطوي فيه مفهوم ان مراكش لم تعد ان تكون مستعمرة افرنسية كل ما تفكر فيه السلطات الافرنسية والمنظمات الافرنسية هو افضل الاساليب والوسائل لاستثمارها واستثمار خيراتها واثرواتها لصالح الافرنسيين .

مجلس شورى الحكومة الافرنسي ومدى نفيره

ثم انشئ بعد قليل من انشاء هذه الغرف مجلس سمي بمجلس شورى الحكومة كانت مهمته في البدء تنسيق اعمال ونشاط تلك الغرف ، وكان يتألف تبعا لطبيعة بنیان هذه الغرف من أعضاء افرنسيين كانوا يعينون تعيينا ثم غدوا ينتخبون إنتخابا من قبل الجاليات الافرنسية بعد ان كثرت عددها واتسع نشاطها واستد كياتها وساعدها .

وهكذا كان هذا المجلس حين نشأ معبراً آخر عن ذلك المفهوم وبأملوب أشد نكابة واستهتاراً ، حيث انطوى فيه معنى ان الحكم والحكومة والمصالح الزراعية والصناعية والتجارية وبكلمة واحدة كيان البلاد الدولي والاقتصادي إنما هو كيان افرنسي وحسب . ومع ان هذا المجلس قد تطور أخيراً بعض الشيء وأدخل فيه عنصر مراكشي عن طريق تمثيل الغرف التجارية والزراعية والصناعية المراكشية

فقد ظل ينطوي على ذلك المفهوم والاسلوب . وقد صار يتألف من رجال الادارة الافرنسيين وممثلين افرنسيين تنتخبهم الجاليات الافرنسية غير الزراعية والتجارية والصناعية ، وممثلين للغرف التجارية والزراعية والصناعية الافرنسية والمراكشية . وصار هذا المجلس بمثابة مجلس نيابي ذي صفة استشارية ، مع التنبيه على ان العنصر المراكشي فيه محدود وأن اكثريته العظمى افرنسية . ومن الطريف المعبر عن ذلك المفهوم والاسلوب ان المقيم الافرنسي العام هو الذي يرأس هذا المجلس الذي احتفظ بذلك الاسم ويتلو عليه بياناً بما قام به من اعمال في الدولة ، ويحضره رؤساء المصالح الافرنسيون ليدلوا ببيانات عن اعمالهم ويجيبوا على ما يوجه اليهم من اسئلة وانتقادات في صدد هذه المصالح . وفي هذا المجلس تناقش ميزانية الدولة وتوضع في القالب المناسب لترفع الى الملك للتصديق ، وتحمل بطبيعة الحال جميع نفقات الاقامة العامة والادارات والتشكيلات الافرنسية المتنوعة .

- ٨ -

ودارت هذه الآلة الاستعمارية المستحكمة الحلقات والشامخة النطاق في طريق هدفها كما دارت مثيلتها في تونس والجزائر من قبل .

المهاجرين

فتحت ابواب البلاد للمهاجرين الافرنسيين وأخذت تسهل لهم اسباب التوطن والاستقرار والاثراء ؛ حتى بلغ عددهم نحو ثلثمائة الف افرنسي بالاضافة الى خمسين الف اوروبي آخر .

الاراضي والمزارعون

واقطع المستعمرون الزراعيون بالاساليب المتنوعة التي جري عليها في تونس والجزائر مساحات واسعة من اجود الاراضي انتزعت من ايدي اصحابها حتى بلغت نحو مليون هكتار أي عشرة ملايين دوغم . وهذه المساحة تعدل نحو ربع

الاراضي الزراعية الصالحة . ويبدو هول النسبة إذا ما لوحظ أن عدد المراكشيين في المنطقة الافرنسية يقرب من تسعة ملايين . كذلك فقد منحوا متنوع المساعدات المالية من خزينة الدولة وخصصوا بامتيازات مكنتهم من التوطن والاثراء . ومن جملة ذلك خفض الضرائب عنهم الى النصف بالنسبة للمراكشيين ، وتشريع العمل الاجباري في المشاريع العامة بالمجان والاجرة الزهيدة واعتبار شق الترع وحفر الابار وتعييد الطرق وأنشاء الخافر في الاراضي المنوحة للمستعمرين بما يدخل في نطاق هذا التشريع . ولقد بلغ من امر هؤلاء المستعمرين أن تسلطوا في ظل هذه الآلة على الفلاحين والاهالي المجاورين لهم وتحكموا فيهم بحكم السادة بالعبيد وتيسرت لهم فيهم اليد الكادحة الرخيصة وأثروا ثراء عظيماً واصبحوا ذوي قوة ونفوذ بحسب حسابها في الدوائر الافرنسية في مراكش وفي باريس معاً .

السياسة الاقتصادية

وقد عدلت أنظمة الجمارك ومنح بها الافرنسيون فوائد عظيمة من جملتها اعفاء كثير من السلع والمصنوعات الافرنسية من الرسوم او خفضها ، فحيت مسن المزاخمة ويسر لها احتكار السوق المراكشية والتحكّم فيها . ولقد كادت الشركات الصناعية والتجارية والزراعية تنحصر في ايدي الافرنسيين حيث قامت شركات افرنسية مدعومة بأموال ضخمة تحكمت في المرافق والاعمال الاقتصادية المتنوعة ، ونالت الامتيازات الاحتكارية العديدة والمعادن والمناجم في مقدمتها وهي كثيرة وغنية جداً . ولقد وصل الامر الى وضع العقبات والمشاكل في وجه كل فلاح مراكشي أراد شراء آلة زراعية حديثة ، وفي وجه كل صانع مراكشي اراد ان يدخل على مهنته شيئاً من التجديد ، وفي وجه كل تاجر مراكشي اراد ان تكون له صلات تجارية خارجية تصديرية او استيرادية فضلا عن العقبات والمشاكل التي تقف في وجه كل محاولة مراكشية ترمي الى تأليف شركات اهلية . ومن عجيب ما يقع ان الادارة الافرنسية تستولي على ما تقدره زائداً على الاستهلاك المحلي من غلات محلية زراعية وحيوانية بالثمن الذي تقدره والذي لا يكاد احبانا يسدد نفقاته وتتولى هي تصديره الى الخارج .

وقد أدت هذه السياسة إلى إفقار الشعب وانحطاط مستوى معيشته وانتشار البطالة والمجاعات وقتل الصناعات المحلية وشل كل نشاط إقتصادي مراكشي . وبكاد معدل اجر العامل المراكشي اجمالاً لا يرتفع اليوم عن ٣٥ فرنكاً اي (٣٥) قرشاً سوريا او اقل . ولقد كانت المجاعات تفتك احيانا كالوباء الجارف نتيجة للفقر وسوء الغذاء حتى إنها ذهبت سنة ١٩٤٥ بنحو مليون نسمة ، مع ان البلاد زراعية ومحاطة ببلاد زراعية ، بما لا يمكن ان يكون اي احتمال لفتك المجاعة هذا الفتك الذريع لو كانت حالة البلاد المالية مساعدة ولو اجديت في بعض السنين .

- ٩ -

الميزانية

ونظرة واحدة الى ميزانية الدولة التي يفرضها الافرنسيون تكفي لمعرفة بشاعة استثمار واستئثار وتحكم هذه الآلة الاستعمارية واستهتارها واهمالها لمراقب البلاد واهلها . فقد كانت نفقات عام (١٩٤٧) نحو ثمانية مليارات ونصف من الفرنكات ينفق نحو ٨٠ في المئة منها على الدوائر الافرنسية لحماً ودماً وعظماً ، وعلى التشكيلات الافرنسية وعلى الموظفين الافرنسيين . وباقيها على الديون والشؤون المراكشية .

التعليم

وفي الميزانية رقم ضخم مخصص للتعليم وهو مليار فرنك . غير ان التدقيق في ما يجري عليه التعليم في مراكش يظهر ان اكثر هذا المبلغ ينفق كذلك على الافرنسيين . فإن عدد الطلاب المراكشين الذين يتلقون العلم في المدارس الحكومية الخاصة بهم كان سنة ١٩٤٧ (٤٥٠٠٠) منهم الف يتلقون التعليم الثانوي الذي ليس بعده اي تعليم ارقى ؛ في حين ان عدد الذين يتلقون التعليم من ابناء الافرنسيين والاوروبيين في المدارس الحكومية الخاصة بهم كان نحو (٧٦٠٠٠) منهم (١٣٠٠٠) في الاقسام الثانوية . وإذا لاحظنا الفروق الكبيرة التي لا بد من وجودها في معدات

ومرتبات اسانذة المدارس الافرنسية ظهر لنا ان نحو ربع ذلك المبلغ الضخم فقط يتفق على المدارس المراكشية ! وإذا ما لوحظ ان عدد الذين هم في سن التعليم من المراكشين يبلغ نحو مليون وربع ، وان عدد الذين هم في سن التعليم من الافرنسيين والاوروبيين لا يزيدون كثيراً عن الخمسة والسبعين ألفاً بمعدل ٢٠٪ من مجموع العدد ظهر هول ذلك الامل والاستثمار ، لانه لا يوجد طفل اوروبي بدون مدرسة بينما ان ٩٦٪ من اطفال المراكشين لا يوجد لهم مكان في المدارس الحكومية !! . ومن المضحك المبكي الذي يظهر قيمة التعليم في المدارس الحكومية الخاصة بالمراكشين كيفية الاضافة الى تلك الضالة في الكمية ان عدد الذين نالوا الشهادة الابتدائية منهم في سنة ١٩٤٧ كان ٨٨٢ صبياً و٨٢ بنتاً . . والى هذا فان اللغة العربية والدين الاسلامي يحاربان في هذه المدارس حرباً شديدة ويضيق مكانها اسد التضيق . وهدف هذا التعليم هو اضعاف الروح القومية والوطنية والدينية وتخريج موظفين ثانويين متشبعين بالولاء أو العبودية لفرنسا . وللمرshal ليوتي كلمة تشير الى هذا الهدف دون ما خجل حيث قال فيما قال : انه ليس لنا اي فائدة من تدريس اللغة العربية ويجب ان تهدف سياستنا الى ابعاد القبائل عن تعليم ابنائها هذه اللغة التي لن نجني من ورائها خيراً .

محاورة اللغة العربية والاسلام

وله كلمة اخرى تكشف عن الروح اللثيمة التي كان يحملها - وهو يمثل السياسة الافرنسية - ضد هذه اللغة والدين الاسلامي معاً حيث قال ان اللغة العربية تنشر الاسلام لاتصالها بالقرآن، وان مصلحتنا لتقضي علينا بابقاء القبائل خارجة عن نطاقها مما هو تنمة للخطة التي ذكرناها من قبل . ولقد كان بما فعله ليوتي منذ عهد مبكر بسبيل ذلك انشاء لجنة خاصة لاحياء اللهجات البربرية في القبائل ومحاورة اللغة العربية فيها . .

والارقام التي ذكرناها عن نسبة الطلاب المراكشين هي احسن مما كانت عليه من قبل على ما يبدو . فقد ذكرت نشرة اصدرتها ادارة التعليم في تشرين الثاني من

عام ١٩٣٩ ان عدد الطلاب المراكشيين في المدارس الحكومية الخاصة بهم هو (١٩٣٨١) بينما كان عدد الطلاب الاوروبيين (٥٧٥٥٩) .

ولقد حاول المراكشيون ان يسدوا ثغرة التعليم الواسعة من حيث الكيفية والكمية ويتلافوا اثر التقصير الباغي والروح اللثيمة ضد الثقافة العربية والاسلامية واستطاعوا بجهود عظيمة وبنفقات باهظة يكادون بنوؤن بها ان ينشئوا عدداً غير يسير من المدارس الحرة ووفق النظام المدرسي القديم . على ان الآلة الاستعمارية تضع شتى العراقيل في وجه نمو هذه المدارس وتحسينها . بل انها اصدرت عام ١٩٢٧ ظهيراً للحد من اتساعها وتعطيل تمويلها بالاكتتابات الشعبية . وهي تتروصد للموجود منها لتسارع الى إقناله بسبب اي موقف تفسره وفق هواها . وقد حالت سنة ١٩٤٨ دون انشاء هذه المدارس ، واقفلت واحدة لان مديرها لم يذهب بتلاميذه لتحية المقيم العام الذي زار وزات سنة ١٩٤٨ ، ومنع المقيم العام في السنة نفسها السلطان من شهود حفلة تدشين مدرسة في الرباط انشئت بالاكتتابات العامة ومن وضع الحجر الاسمي لمدرسة اخرى مثلها في مدينة مراكش .

ونتيجة لهذا كله فإن الشعب المراكشي مرتكس في الجهل ، ونسبة الامية فيه تزيد على التسعين في المئة ...

كذلك توضع العراقيل والسدود في وجه الشبان الذين يتوقون الى ارتياد مناهل العلم في اوروبا ، وقد كان نتيجة ذلك انه لا يوجد في جميع مراكش إلا ثلاثة اطباء وستة محامين وستة مهندسين مراكشيين استطاعوا ان يتغلبوا على هذه العراقيل او يتفلقوا منها !

ومثل هذه العراقيل واشد توضع في طريق من يود ان يولي وجهه شطر المشرق العربي وارتياح معاهده ، وقد عرفنا ذلك بأنفسنا . فقد استطاع بضعة نفر من ابناء مراكش ان يفتت فجاء ودخل مدرسة النجاح في نابلس وعد ذلك فتحاً عظيماً ، واضطر هذا النفر ان يبقى نحو ست سنين دون ان يعود الى بلاده في عطلة خشية من عدم تمكنه من العودة الى المعهد الذي رأى في الانتساب اليه هذا الفتح مع انه معهد ابتدائي وثانوي . وقد كان من شأن هذا النفر أن برز في مجال الحركة الوطنية حينما تم تعليمه وما يزال يشغل الصفوف الأمامية فيها . وقد علمنا ان السلطات قد توجهت لتسرب هذا النفر الى المشرق العربي فأخذت تشدد المنع حتى لا تسري عدواه ...

اهمال المراقبين الصحية

وروح الاهمال والاستئثار بادية في الشؤون الصحية ، فتأتون في المئة بما يخص لهذه الشؤون في الميزانية يتفق على شؤون الجالية الافرنسية والاوروبية من مستشفيات ومستوصفات ومكافحات النخ . وقد نشب مرض التيفوس في اواخر الحرب العالمية الأخيرة ففتك في المراكشيين فتكاً ذريعاً حتى لقد كانت امواتهم تبلغ المئات يومياً في بعض المدن دون ان تقوم السلطات الصحية بجهود جدي في كفاح الوباء .

- ١٠ -

مراكش تحت الحكم العسكري

ولقد اعلنت السلطات حالة الطوارئ، والحكم العسكري منذ تم الاحتلال، ولم تلغ الى الآن ! أي ان مراكش منذ ثمان وثلاثين سنة تحت كابوس الحكم العسكري وحالة الطوارئ . وكان نتيجة هذا ومن نتائج المنهج الاستعماري الذي سارت عليه هذه السلطات ان حرم المراكشيين من مختلف حرياتهم . فلم يسمح لهم خلال هذه المدة الطويلة بتأسيس اي ناد او جمعية او حزب حتى ولا بانشاء فرق رياضية وكشفية مع وجود نصوص قانونية تسمح بذلك ، لأن هذا قيد بموافقة السلطات وإذنها، ولم توهذه السلطات ان توافق على شيء من ذلك . والقليل الموجود غير قانوني قام بقوة الظروف وبدون إذن السلطات واعترافها وقد كان قبل النكبة منظمات عديدة ظلت السلطات تحاربها حتى قضت على اكثرها، ولم يتسع صدرها إلا لطوائف المشعوذين والدجالين ممن ينتسبون الى الطرق الصوفية التي كانت مطاياها . هذا في حين انها تحمي باعة الخمر والحشيش والمتجرين بالاعراض من الأجانب، وفي حين تسمح للجالية الافرنسية بتأسيس احزاب مستقلة او تابعة لاحزاب فرنسا، وتسمح لها بتأسيس متنوع الازدية والمنظمات .

ولقد سمح الافرنسيون بقيام جمعيات خيرية محلية في بعض المدن لمساعدة الفقراء والمرضى ، غير انهم جعلوها تحت اشراف مراقبين افرنسيين وتوجيههم، ومؤلفة من

الفئات المتزلفة التي ليس لها من هم العمل إلا الانتساب اليه والتقرب للمراقب
الافرنسي والتأمين على كل ما يقوله ويقترحه ، بحيث فقدت هذه الجمعيات كل مظهر
مجد من مظاهر النشاط والانتاج .

كذلك كان امرهم إزاء الصحافة . والصحف العربية القليلة التي تصدر في مراکش
هي التي يصدرها اناس مأجورون يكتبون ما يوحى اليهم أو تصدرها إدارة الشؤون
السياسية مباشرة على الاغلب . وما يصدره غير هؤلاء يستهدف لمراقبة شديدة قبل
الطبع تجعلها فاقدة الروح . وقد سد باب المغرب امام اي صحيفة أو نشرة خارجية
غير افرنسية وخاصة عربية ، حتى لقد بلغ عدد المتنوعات عام ١٩٤٨ الفاً ومئتين .

- ١١ -

نضال مراکش

ولم يستسلم المراكشيون ايضاً كماخوانهم من قبل لما اريد لهم من تبدل الوجه
والروح واللسان والكيان . ولقد بدأ كفاحهم منذ الاحتلال واستمر الى
اليوم . وقد ذكرنا قبل قليل ما كان من الثورات الكبرى في فاس ومناطق
الجنوب وجبان الاطلس على اثر النكبة كما ذكرنا موقف السلطان عبد الحفيظ
وتنازله الاحتجاجي . ولقد ظلت الاحتجاجات والاضرابات والثورات الدامية
تتكرر وتكون شديدة عنيفة اجباناً . ومع ما كان الافرنسيون يقابلون هذه
الحركات به من القمع والتنكيل ويصيبون بعض النجاح في خطواتهم الارهابية
والاستعمارية فإنهم لم يستطيعوا ان يخضعوا أهل البلاد ويقضوا على مقاومتهم ، بل
لقد كان هذا النجاح الذي يصبونه عاملاً من عوامل اشتداد البكره والمقاومة
والتدمير والتصميم على النضال الى النهاية .

الظهير البربري وأثره

وفي سنة ١٩٣٠ استصدرت السلطات الظهير الشهير بالظهير البربري الذي يقضي
بنزع اختصاص القضاء الشرعي الاسلامي بالنظر في شؤون القبائل البربرية كما كان

جاريا الى هذه السنة ونسوية هذه الشؤون وفق العادات والتقاليد البربرية القديمة إحصاءاً للخطة التي تبتناها وبدأنا عام ١٩١٤ على ما ذكرناه قبل ، واشتدت مع هذا حركة التبشير بين القبائل فأثار ذلك هياجاً عظيماً وصلت أخباره الى المشرق العربي فأثارته بدوره وحملت هيئاته الوطنية على الاحتجاج والاستنكار لما انطوى فيه من شديد الكيد وسوء القصد للاسلام والمسلمين والكبان المراكشي . فقام في مختلف انحاء مراكش مظاهرات صاخبة ووقوع اشتباكات دامية ، والتجأ الناس الى المساجد يجأرون الى الله بالنقمة على الظالمين واشتدت السلطات في القمع والمطاردة حتى امتلأت سجونها ، واخذ الناس يؤثفون الوفود من مختلف انحاء البلاد بما فيها القبائل البربرية ويوفون بها الى الملك للاحتجاج فكانت السلطات تترصدهم وتحول دون وصولهم الى العاصمة او مقابلة الملك وترسل بعضهم الى السجون . وقد تمكن بعضهم مع ذلك من اختراق الارصاد ومقابلة الملك وتقديم العرائض اليه بالمطالبة بتوطيد سلطات الملك وحكومته ونسج الحواضر والبوادي للشريعة الاسلامية والمحاكم الشرعية وتعميم تعليم اللغة العربية والقرآن والديانة الاسلامية واستعمال اللغة العربية في الدواوين وايقاف حركة المبشرين ومنعهم من نشر ما يمس بكرامة الاسلام وبنيه ومن التجول في البوادي وشهود المواسم والاسواق ومنع الاعازات الحكومية عنهم واخراج الرهبان والمبشرين من وظائف التدريس والحكومة النخ ، وخطبت الوفود امامه خطباً قوية لم يسمع الملك الا ان يذرف دموع الحسرات امامها ، ولم نجد محاولاته في اقناع السلطات الافرنسية بالتخفيف من غلوها شيئاً ...

كتاب العمل الوطني

وقد كانت هذه الحركة موقظة للأفكار ، فلم يلبث فريق من الشباب ان نشط الى التكتل والعمل وفق الاسلوب الحديث ونتج عن هذا تأليف هيئة وطنية باسم « كتلة العمل الوطني » ؛ فكان هذا تدشيناً لعهد الحركة الوطنية الحديثة في مراكش . وقد اخذت هذه الكتلة تنشط في التنظيم والدعاية نشاطاً كبيراً فلم تلبث السلطات ان حلتها .

الحزب الوطني

غير ان رجالها لم ينوا عن نشاطهم واغتنموا إحدى الفرص المواتية فعادوا الى تكتلهم بإسم « الحزب الوطني » بزعامة علال الفاسي الذي مزج دعوته الوطنية بالدعوة الدينية فاستطاع ان يشغل بحركته حيزاً كبيراً ويترك في بني وطنه أثراً قويا وبثير فيهم الشعور القومي والديني معاً ، ويزيد فيهم الكره والحقد على المستعمرين واهدافهم الباغية ، والتصميم على النضال والتحرر منهم . وقد نشأ إلى هذا حزب آخر هو « حزب الحركة القومية » بزعامة الوزاني سار هو الآخر في بادئ الامر في نفس الطريق التي سار فيها الحزب الوطني ، وكان له نصيب في ما انتشر واتسع من الشعور الوطني في طبقات الشعب .

اعتقال زعماء الحركة وتعذيبهم

فعادت السلطات الى شدتها ، فاعتقلت الزعيمين عام ١٩٣٧ ونفت الفاسي الى افريقيا الاستوائية والوزاني الى منطقة مراکشية نائية حيث دام اعتقالهما نحو عشر سنين ، كما اعتقلت عشرات آخرين من رفاقهم وزوجتهم في السجون وسامتهم العذاب الشديد الذي أزهد ارواح بعضهم . فكان هذا مؤدياً الى خمود الحركة بعض الشيء ، ثم نشبت الحرب العالمية الثانية بعد قليل فاستطاعت فرنسا ان تسيطر على الموقف بيد حديدية أشد .

مراكش في اثناء الحرب

ولقد كانت مراكش كما كانت تونس والجزائر منبعاً غزيراً للقوى الافرنسية في هذه الحرب كما كانت كذلك في الحرب الاولى حيث جند منها عشرات الالوف وارسلوا إلى مختلف الجهات ، وذهب منهم الوف الضحايا . ولقد اغدقت على مراكش الوعود الواسعة بالاصلاح والحريات كما اغدقت على شقيقتها . وكانت مراكش وسواحلها الغربية خاصة نقطة حساسة جداً في العمليات الحربية . وقد

ظلت السلطات الافرنسية في مراکش مواثبة لفيشي عندما انهارت فرنسا فافتحم الحلفاء شواطئ مراکش الغربية في اواخر عام ١٩٤٢ ، وحاول القائد العام ان يقاوم فتدخل الملك الذي كان يشترك مع شعبه في كره الافرنسيين ونضاله وعواطفه الوطنية املاً بأن تكون فرصة هذا الانهيار سعيدة على مراکش .

وفي سنة ١٩٤٣ قدم روزفلت الى مدينة السدار البيضاء وكان شديد العناية بالاطلاع على احوال البلاد ولمس ما تعانيه من المنهج الاستعماري الافرنسي فارسل كاتمه المشهورة الصادقة كل الصدق . ان الاستعمار الافرنسي اسوأ مما يمكن ان ينكب به شعب من الشعوب . . واجتمع به الملك وشرح له الحالة السيئة التي ترتكس فيها البلاد فطمأنه بمستقبل سعيد بعد نهاية الحرب تحقيقاً لمبادئ ميثاق الاطلانطي التي يهتف بها ، ولقد ابوم رجال ديغول روزفلت بما اطمنوا به من عظمة الامبراطورية الافرنسية في المغرب العربي وما يمكنهم ان يهتوه منها من الجيوش وبعده من وسائل التموين والقواعد الحربية اذا ما توفرت لهم المعدات الاميركية حتي ضاق بهم ذرعاً وقال لابنه ان هؤلاء الافرنسيين لا يفكرون حتى في ايام محنتهم في مصلحة الاهالي الذين شردهم وابتزوا اوزاقهم دون ان يقدموا لهم مقابل ذلك شيئاً !

استئناف النشاط الوطني وحزب الاستقلال

وفي اوانسـل سنة ١٩٤٤ استأنف الوطنيون المراكشيون نشاطهم بسبيل إستغلال ظروف ما بعد الحرب وهتافات الحلفاء بمبادئ الحق والعدل فالفوا حزبا جديداً بزعامة أحمد بلافريج ضم جميع العناصر الوطنية باسم حزب الاستقلال . وقد دشـن الحزب نشاطه بمذكرة مسهبة شرح فيها تاريخ مراکش الاستقلالي قبل النكبة ومأساتها الاستعمارية بعدها ، وطالب باستقلال مراکش ووحدة اراضيها والالتباس من الملك السعـى لدى الدول التي يهـمها الأمر الاعتراف بهذا الاستقلال وضمائه ، والانضمام الى الدول الموقعة على ميثاق الاطلانتي، وإقامة نظام سياسي شوري أسوة بنظام الحكم في البلاد العربية ، وقدمت المذكرة الى الملك والى ممثلي اللجنة الديغولية والولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا .

ثم اخذت الوفود الممثلة لجميع طبقات الشعب تقدا الى القصر الملكي من جميع انحاء المملكة ، وريدة لهذه المذكرة التي عرفت في تاريخ الحركة الوطنية بوثيقة الاستقلال ، واجتمعت الوزارة المراكشية تحت رئاسة الملك وقررت تأييدها . وهكذا تطورت الحركة واتخذت صفة شعبية واستقلالية عربية .

القمع والتكبير والاتجار

وكان لهذا العمل اثر شديد لدى السلطات الافرنسية ، ومع انها لم تكفد تنسى حقها وجنونها في لبنان فانها اقدمت على حركة جنونية وباغية اخرى حيث اعتقلت بلافريج ونفته الى كورسيكا ثم القت القبض على عدد كبير من رجال الحزب وشبابه بتهمة الفاشية ، فانفجرت البلاد بالمظاهرات والاشتباكات الصاخبة وخاصة في مدن فاس والرباط وسلا والدار البيضاء ووجده ، حتى لقد كان من أمر فاس أن صمدت شهرين طويلين في وجه القوى والحملات الافرنسية بما حمل السلطات على قطع تيار الكهرباء وموارد الماء والتسوين عنها لطمها على الاستسلام والخضوع ، ولقد اشتدت هذه السلطات في القمع والتكبير دون مراحة او هوادة واستعملت المصفحات والمدفعية فازهقت ارواح الكثيرين واعتقلت المئات من الوطنيين وعذبتهن اسد العذاب في المعتقلات العسكرية حيث جلدوا وسبقوا حفاة عراة في مناطق التاج والصقيع . ولم يكن لمراكش الحظ الحسن الذي كان للبنان والذي حرك الانكليز ثم الاميركان واثار العالم العربي ، ولا سيما ان بغي فرنسا كان منيراً باعتقال رئيس الجمهورية والوزراء وحل مجلس النواب في بلد اعترف باستقلاله ، فلم تتحرك قلوب الحلفاء ولم تنبض عروقهم لهذه المأساة الدائمة التي مثلت على مسرح مراكش بين سمعهم وبصرهم !

جمعية الرفاع في القاهرة

ولقد استطاع بعد قليل بعض رجال مراكش ان ينزلت من مراكش الى

القاهرة حيث الفوا جمعية الدفاع عن مراکش ، واخذوا يرفعون اصوات الاستنكار لما يجرى في بلادهم المنكودة وامتهم المظلومة ورجالهم الذين يسامون العذاب الاليم ، فكانت جمعيتهم هذه النواة للحركة المغربية العربية الشاملة التي ترعرعت في القاهرة في السنين الاخيرة ، والتي غدت جزءاً لا يتجزأ من الحركة الوطنية المغربية في داخل البلاد وخارجها .

ولقد افرج عن علال الفاسي والحسن الوزاني في سنة ١٩٤٦ فعاد الاثنان الى مراکش .

اقسام الحركة بالمركبة العربية

واستأنفا ما انقطع من نشاطها ، وانضم الفاسي الى حزب الاستقلال الذي كان يضم اكثر العاملين في الحقل الوطني ويردد صدى نشاطه جمهرة الشعب المراكشي ويعضده الملك فيه ، وغدت العلامة المميزة له المناداة بالفكرة العربية والاندماج في الحركة العربية الشاملة والتضامن في ذلك مع الأقطار العربية الأخرى المغربية والشرقية .

وهكذا التحقت مراکش فعلاً بموكب هذه الحركة ، وغدا نضالها موسوماً بها وهي ما تزال قوية التصميم في هذا النضال الى ان يتحقق هدفه العربي القومي ، وهو متحقق ان شاء الله لانه منبثق من شعب عربي ابي ضد الظالمين البغاة ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون !

١٢

سياسة اسبانيا الباغية في مراکش الشمالية

وقتمة للكلام نقول ان المنطقة الشمالية التي تعرف بالريف والتي نكبت بالاسبان قاست وما تزال تقاسي ما قاسته شقيقتها الجنوبية من الافرانيين ؛ سواء في عهد الملكية او الجمهورية او الديكتاتورية ، حيث سار الاسبان على غرار فرنسا في الروح والمنهج ومحاولة هدم الكيان وفي التثقيب والقمع والاستئثار ، وكل ما

هنالك أنهم تأخروا في السير الحثيث بسبب الثورة الريفية الكبرى التي كانت إمتداداً للنضال القائم ضد قبل النكبة الافرنسية حيث كانوا يحتلون بعض اقسام البلاد منذ امد غير قصير .

ولقد كان الريفيون لا يهدأون في هذا النضال ، واتسم في اوائل القرن الحاضر بسمة حرب عصابات تعرف بالثورة الجبلية ؛ وكانت تشد حتى يبلغ عدد المشتركين فيها احياناً الألوف العديدة ، وتشغل عشرات الألوف من الجند الاسباني وتستنفد جهود اسبانيا وأموالها وتكبدتها اعظم الخسائر .

حرب الريف بقيادة الامير الخطابي

وظل الأمر كذلك الى ان برز الامير عبد الكريم الخطابي عام ١٩٢٠ فانضوى تحت لوائه وزعامته جميع العصابات ، وانقلبت الحالة من ثورة عصابات وإزعاج الى حرب رسمية هجومية ، وأخذ الجيش الريفي الباسل يتقدم في جميع الميادين ، والقوى الاسبانية تنهار امامه مع تفوقها العظيم في العدد والعدد ، ولم تنته سنة ١٩٢٤ حتى اصبح معظم المنطقة تحت سيطرته ولم يبق في يد الاسبان الا بعض المدن الساحلية مثل مليلا وسبتة ، وكانت اخباره تصل الى المشرق فتزهزأ لما كان يرافقها من أخبار البطولة والانتصارات التي سجلت اعظم المفاخر للنضال العربي في هذا القسم من الوطن العربي الكبير .

وقد اعلن الامير جمهورية الريف وانتخب رئيساً لها ، وأخذ يمارس سلطانه كذلك . وثار الرأي العام الاسباني ضد الحرب وأخذ الجيش الاسباني يتسرد ، واضطر بريمودي ريفيرا رئيس اسبانيا الى جس النبض في صدد الصلح فاشتروط الامير جلاء القوات الاسبانية عن جميع ما نحت إحتلالها بما في ذلك سبتة ومليلا . وعلمت فرنسا بالأمر فجن جنونها من احتمال جنوح إسبانيا الى الصلح على اساس هذا الشرط او في نطاقه خشية استفحال أمر الامير وامتداد حركته التحريرية الى سائر مراكش ؛ فضغطت على اسبانيا من جهة وسارعت من جهة اخرى الى إرسال جيوشها واساطيلها لشد عضدها . وهكذا غدا الامير يواجه قوى دولتين ؛ وصمد مع ذلك نحو سنتين اخريين يبدى مع جيشه من ضروب البسالة والتحمل والمقاومة

ما لا يزال ماثلاً في الازهان ، حتى اذا كان عام ١٩٢٦ كان قد نفذ ما في يده من زاد وعتاد ومعدات ، وكانت دسائس الافرنسيين وذهبهم خاصة يلعب دوره بما ادى الى اخذ لان الامير من قبل انصار اقوياء فلم يكن بد من الاستسلام لفرنسا التي وعدته بالرعاية ، ثم نكثت فنفته مع أسرته الى جزيرة ريونيون النائية الموبوءة وغم احتجابه . وظل في منفاه البغيض الى سنة ١٩٤٧ حيث استسبح فرصة نقله الى منفى افرنسي فنزل الى بور سعيد بجرعة بارعة واعلن التجاهه الى مصر وملكها فكان له فيها الملجأ الكريم .

- ١٣ -

مصادرة الاراضي وتوزيعها

ومنذ انتهاء الحرب الريفية اخذت اسبانيا تفرغ لتنفيذ مناهجها الاستعمارية . وقد تمثلت هذه المناهج في كلمة مأثورة لأول مندوب سام اسباني حيث قال : سوف لا ترتكب الغلظة التي ارتكبتها اجدادنا مع مسلمي الاندلس فالتقوا بهم في البحر بل ان خطتنا معهم ستكون حازمة حاسمة بحيث نرغمهم على ان يلقوا هم بأنفسهم في البحر . . !

ولقد دشنت اسبانيا سياستها بحصار منطقة نفوذهم وتطويرها ثم تقسيمها الى مقاطعات وإحاطة كل مقاطعة بسياج من حديد ، ثم سيطروا على الادارة المدنية ، ونظموا حملة انتقامية ضد جميع الذين ساهموا في الثورة من قريب او بعيد فصادروا املاكهم واعدموا الكثير منهم وسجنوا وعذبوا من وقع في ايديهم وشردوا باقيهم . ثم سنوا قوانين الامتيازات العنصرية ونزع ملكية الاراضي وطلبوا من خليفة الملك اصدار مراسيم لاقرار قوانينهم فامتنع ثم توفي فجأة ، وخلفه ابنه وكان قاصراً فأنشأوا مجلساً صورياً للوصاية واستصدروا ما شاؤوا من المراسيم ، وكان من فحوى تلك القوانين نزع ملكية ساحات واسعة من اخصب الاراضي وضمها الى الممتلكات الاسبانية واحتكار جميع منابع الثروة في البلاد ومنحها للشركات الاسبانية ، ثم فتحو ابواب البلاد لمتعطلتهم ومتبطلتهم وطلاب الثروة منهم فأخذوا يزحفون

ريستلون من السلطات الاراضي المزروعة والمساعدات المالية ، وقدم فيمن قدم عدد كبير من الرهبان والقساوسة ، فمنحتهم السلطات المساعدات الكبيرة باسم المؤسسات الكنيسية ، واخذوا من ناحيتهم في محاربة الاسلام والعروبة في مختلف مجالاتها .

الادارة

ومع ان الاتفاق الافرنسي الاسباني نص على قيام حكومة مراكشية برئاسة الخليفة تمثل فيها السلطات وتصدر عنها الاوامر والقوانين فإن هذه السلطات نضأت حتى صارت عدماً وقام الى جانبها ثلاث سلطات او بتعبير اصح ثلاث حكومات إسبانية ؛ وهي حكومة المندوب السامي وحكومة الحماية وحكومة النقابات .

ففي الاولى دائرة بمثابة رئاسة الوزارة واخرى بمثابة وزارة الخارجية وثالثة بمثابة وزارة الحربية ورابعة بمثابة وزارة العدلية . وفيها امانة السر العام الحماية التي هي صلة الوصل بين دوائر المندوبية ودوائر الحماية . وفوق كل هذا هيئة استشارية تضع الخطط العامة لسياسة اسبانيا في المنطقة تتألف من القساوسة وغلاة المستعمرين العسكريين والمدنيين .

وفي الثانية تشكيلات مماثلة تسمى بالنيابات ؛ منها نيابة الامور الأهلية التي هي بمثابة وزارة الداخلية ، ونيابة الامور المالية ونيابة الاشغال العامة والمواصلات ونيابة الاقتصاد ونيابة المعارف .

وهيئة النقابات - وهي الادارة الثالثة - تضم نقابات العمال والزراع والتجار والملاك والموظفين ، وتسيطر على البلديات والغرف الزراعية والتجارية . وهي اسبانية اللحم والدم وهما توفير العمل واسباب الراحة والنجاح للهاجرين الاسبان . والرؤساء والموظفون في هذه الحكومات الثلاث الذين يعدون بالالوف العديدة اسبانيون يتناولون نفقاتهم من خزينة المنطقة . ويبدو الهول في هذا إذا ما لوحظ ان مساحة المنطقة هي نحو عشرين الف كيلومتر مربع وسكانها نحو مليون ، وهي بالنسبة إلى المنطقة الشمالية واحد من خمس وعشرين مساحة وواحد من تسعة سكاناً .

السلطات المراكشية

اما السلطات المراكشية فتتألف من حكومة فيها رئاسة وزارة ووزارات عدلية وارقاف ومديريات املاك ومعارف وبيت مال ومن ادارات تابعة لها في انحاء المنطقة . غير انها مسلوبة من كل سلطة فعلية ، ولا تباشر عملاً ولا تنجز امراً إلا وفق ما تقترحه نيابة الامور الاهلية وتوافق عليه . ولم تكف اسبانيا بذلك وبحكوماتها الاسبانية الثلاث بل ملأت دوائر الحكومة المراكشية المركزية وتوابعها بعدد كبير من الموظفين الاسبان وجعلتهم كل شيء فيها .

الموظفون الاسبانيون

وقد بلغ عددهم عام ١٩٤٦ (٣٩٣٤) بينما لم يتجاوز عدد الموظفين المراكشيين خمسة آلاف . والأغرب والابشع ان الموظفين الاسبان يشغلون مختلف الوظائف سواء في ذلك الخطير والحقير ؛ بل ان عددهم في بعض الوظائف الحقيرة يزيد زيادة كبيرة على عدد المراكشيين . فقد كان عدد سعاة البريد في العام المذكور (٨٧) منهم (٧١) اسبانياً ، وعدد سائقي السيارات الرسمية (٨٠٩) منهم (٧٧١) اسبانياً وعدد التراجم (٤٦) منهم (٢٨) اسبانياً وعدد المساحين (٥٧) جميعهم اسبان وعدد حراس الغابات (١٢٧) منهم (٦٨) اسبانياً وعدد موظفي مصلحة التالفون (٩٤) منهم (٩٣) اسبانياً وعدد راكبي الدراجات النارية (٢٦) منهم (٢٤) اسبانياً وعدد المرضين (١١٦) منهم (١١٣) اسبانياً .

الميزانية

وقد بلغت ارقام ميزانية النفقات لعام ١٩٤٦ وهي من وضع الاسبان مئتين وأحد عشر مليوناً من البسيطات (والبسيطة تعادل نحو نصف شلن) ينفق منها على الادارات الاسبانية وموظفيها والموظفين الاسبان في دوائر الحكومة المراكشية والمدارس المحصنة لأبناء الاسبان أكثر من ثمانين في المئة منها .

التعليم

وسياسة التجهيل نافذة بأبشع مظاهرها. فالمدارس الحكومية المخصصة للمراكشيين لا تستوعب أكثر من أربعة في المئة من الذين هم في سن التعليم منهم حيث يوجد فيها نحو سبعة آلاف في حين أن عدد الذين هم في سن التعليم يزيد عن مئتي ألف! وليس من هذه المدارس إلا مدرسة ثانوية واحدة غير كاملة؛ هذا فضلاً عن المنهج الاسباني الذي تسير عليه هذه المدارس والذي يهدف في الدرجة الاولى الى محاربة اللغة العربية والتقاليد الاسلامية. أما المدارس الحكومية المخصصة لأبناء الاسبان فانه اتعد بالعشرات منها الابتدائي ومنها الثانوي ومنها الفني، وتستوعب ٨٥٪ ممن هم في سن التعليم منهم. وقد وضعت العراقل في طريق الذين يتوقون الى ارتياد معاهد العلم في أوروبا أو في المشرق العربي؛ حتى إنه لم يتخرج طول مدة حكم الاسبان من المراكشيين إلا طبيبان وأربعة محامين ومهندس واحد؛ وكان ذلك بطريق التهريب إذا صح التعبير. كذلك وصعت العراقل المتنوعة في طريق المحاولات التي يحاولها المراكشيون في سبيل سد شيء من ثغرة التعليم الواسعة.

الإهمال الصحي

وقد أهملت وسائل الصحة إهمالاً فظيماً. فليس في المنطقة إلا ثلاثة مستشفيات وفي حالة رديئة وبائسة جداً؛ فضلاً عن سيطرة الرهبان الاسبان على إدارتها سيطرة تامة. وليس في المنطقة كذلك مستوصفات صالحة ولا وسائل إسعافية ناجعة في مكافحة الأمراض المحلية والأوبئة.

السياسة الاقتصادية

وقد سار الاسبان على سياسة اقتصادية استهدفت السيطرة على جميع صادرات المنطقة و وارداتها سيطرة تامة. فقدت المنطقة سوقاً للمنتوجات الاسبانية دون مزاحم، وحوربت الصناعات المحلية المراكشية أشد حרב، ووضعت العراقل في

طريق كل نشاط مراكشي زراعي أو صناعي أو تجاري حتى إنه ليس هناك فلاح مراكشي يمارس زراعته بالآلات الحديثة ، وحصرت الامتيازات والشركات والمناجم والمعادن بالاسبانيين فتحكموا في خيرات المنطقة وثورتها ومادنها وتجاريتها وصناعتها وسائر مرافقها .

المستعمرون الاسبانية

ولقد بلغ عدد المهاجرين الاسبان في المنطقة نيفاً ومئة الف وزاحموا المرراكشيين في كل ميدان ، ومنحوا متنوع المنح والامتيازات . وقد بلغ ما صار في حوزة المزارعين منهم نحو ثلاثة ملايين دونم من أجود الأرض وأخصبها ، نزعت من يد العرب بمختلف الوسائل ، وقد أمدوا بالقروض والامتيازات المتنوعة التي استطاعوا بها الاستقرار والاثراء وإنشاء جيد الحقول والبساتين ، وهذا فضلاً عما انتزعته السلطات الاسبانية من أراضي المناضلين والأوقاف الواسعة وألحقته بأملك الدولة والتي تستثمر منه ما تستثمر وتقطع منه ما تشاء للمزارعين الاسبان . ومن الطريف أن المهاجرين الاسبان زاحموا المرراكشيين حتى في المهن والمشاغل الحقيرة كسبح الاحذية وكس الشوارع مثل ما زاحمهم في الوظائف الحقيرة كالسعاة والبوابين والمراسلين الخ .

وتستند اسبانيا في تنفيذ سياستها الباغية وتوحيد سيطرتها الشديدة الى حكم الارهاب المؤيد بثمانين الفاً من الجند موزعين توزيعاً دقيقاً وعشرين الفاً من البوليس المنظم بطريقة الغستابو .

السياسة البربرية

ومع أن إسبانيا لم تصدر ظهيراً مثل ظهير البربر الذي أصدرته فرنسا في المنطقة الجنوبية فانها طبقت السياسة البربرية تطبيقاً دقيقاً ، فأست نيابة في قبائل الريف وأطلقت يدها في تطبيق تلك السياسة . وقد أخذت هذه تتحكم في دنيا القبائل ودينها وتقاوم الدروس الدينية والمدارس القرآنية وتحول دون الاتصال بينها

وبين أبناء المدن ونحازب اللغة العربية وتشجع على إحياء اللهجات البربرية والعودة إلى التقاليد الجاهلية دون الشرع الاسلامي الذي ندين به هذه القبائل وتطارد الذين يتجولون بينهم من أبناء المدن وكثيراً ما تلقى في غياهب السجون ، ولا تسمح بالتجول إلا للمنافقي مشايخ الطرقات والدين ومشعوذهم الذين يسرون في الاتجاه الذي توجههم فيه . أما المبشرون المسيحيون والرهبان فلم يكامل الحرية بالتجول والتبشير بالنصرانية بين هذه القبائل والتهجم على الاسلام ونبئته .

- ١٤ -

استاف الساط الوطني

ومع ما كان من أثار كارثة استسلام الأمير عبد الكريم وانتهاء مقاومته فان الريف لم يلبث قليلاً حتى أخذ يستأنف نشاطه الوطني والسياسي والثقافي في سبيل الدعوة الى المتانمة وتحقيق الأمان الوطنية والحقوق السياسية وتلافي التقصير من ناحية الثقافة العربية والاسلامية . ولم تكمد سنة ١٩٣٦ تأتي حتى أصبحت الحركة الوطنية حركة شعبية عامة .

حركة فرانكو

غير أنها اصطدمت بالحرب الاعلية الاسبانية ، حيث اتخذ فرانكو منطقة الريف قاعدة لحركته . ولما احتج الخليفة والهيئات الوطنية على ذلك اعتقل الطاغية عدداً كبيراً من رجال الحركة كما وضع الباقين تحت المراقبة العسكرية ومنعهم من مغادرة بيوتهم وحرّم عليهم أي نوع من أنواع النشاط السياسي أو الثقافي ، وجند كثيراً من أبناء المنطقة بالقوة لبحار بوا في صفوفه ! وقد ذهب منهم أربعون الف ضحية في هذه الحركة .

ولما تم الفوز لفرانكو تظاهر مدة ما بحسن النية والرغبة في تحقيق بعض المطالب الوطنية ، وأوصى مندوبه الجديد بحسن السلوك مع الخليفة ، وأغدى الوعود للمراكشيين ، فاعتنم الوطنيون الفرصة وأنشأوا حزب الاصلاح ، وأقبل الناس

على الانتساب إليه حتى غدا قوة عظيمة . وتقدم رجاله يطالبون استناداً الى الوعود ومظاهر النية الحسنة بتغيير الحالة القائمة وإلغاء الحكم المباشر الارهابي وإعلان الحكم الذاتي في المنطقة . ولى هذه الفترة تعود تلك الدعايات التي انتشرت لصالح عهد فرانكو وتصويره كصديق للعرب والمسلمين راغب في الأخذ بأيديهم وصلاح شؤونهم .

على أن رجال الاستعمار في إسبانيا والمنطقة الذين أخذوا يتخوفون من عواقب هذه الحرية التي تمتع بها المراكشيون في هذه الفترة وبما يمكن أن ينالوه ، ويرون في ذلك خطراً يهدد النفوذ الاسباني استطاعوا إقناع فرانكو بمخطل هذه السياسة ؛ فأمر مندوبه بتغيير أساليبه فاستطاع هذا بالاغراء والرشاوى أن يشبط الحركة ويفرق الصفوف . ولكن هذا لم يكن كافياً في نظر أولئك الاستعماريين لأن الخليفة كان قد سار شوطاً غير يسير في طريق الإصلاح الحكومي والثقافي إغتناماً للفرصة السانحة ؛ فسمعوا حتى يُبدل المندوب بوجل عسكري يمكن من وقف هذا السير بالقوة والصرامة .

انتهاء الحرب العالمية الثانية

ونشبت الحرب العالمية الثانية وظهرت ميول فرانكو نحو المحور وأحب أن يغتم فرصة انتصارات هتلر وانهيار فرنسا ليحل محلها في الشطر الثاني من مراكش ويستعد لذلك ، ومع أن الظروف لم تواتر فانه أرسل سنة ١٩٤١ مندوباً جديداً بتعليمات شديدة كان من نتائجها إلغاء الاحزاب الوطنية ، ومصادرة الحريات ، وتشديد مظاهر الارهاب البوليسي ، فاكتسحت البلاد موجة من الارهاب ، وأخذ الموظفون الاسبان واستعماريوهم يستغلون هذا الجو ابشع إستغلال بالنهب والسلب والرشاوى والمصادرات والمطاردة ، فكانت محنة قاسية انصبت على رؤوس السكان الذين كانوا يظنون أنهم أوشكوا أن يحصلوا على بعض حقوقهم ومطالبهم .

مراسيم التحكم والارهاب الجديدة

ولقد انتهج المندوب الجديد سياسة قائمة على التفريق والتنكيل والتوهين ، وسار في هذه السياسة خطوة عملية جديدة حيث طلب من الخليفة المصادقة على أربعة

قوانين يرفع أحدها ضريبة الأثرث على المراكشيين إلى ثلث التركة ، ويجول ثانيها إدارة الحماية حق التصرف المباشر في الاطيان والعقارات ويرفع ضريبة الاملاك الى ثلث الدخل ، ويحدد ثالثها الساحة المبنية لسكن الاسرة المراكشية ويفرض على التي تشغل مساحة أوسع من المحدد أن تسكن معها غيرها ، ويقيد رابعها رصيد التاجر المراكشي بما لا يزيد عن عشرة الاف بسيطة أي نحو مئتي جنيه ويمنعه من التعامل بأكثر من ذلك في وقت واحد . وثار الخليفة على هذه القوازين قائلاً إنها جنون إداري وطغيان لا يعرف له مثيل في تاريخ البشر وأبى التوقيع عليها . ولكن المندوب لم يبال رعباً جيشه وحاصر مدن المنطقة وقراها وأخذ ينفذ منهجه الجديد بالقوة والطغيان ، وعمد إلى الاراضي الزراعية فنزع ملكية أحسنها وضمه إلى ممتلكات الدولة الاسبانية واستقدم عدداً كبيراً من المهاجرين الاسبان ووزع عليهم هذه الاراضي بعد أن أمدم بقروض من الحزاة المراكشية . وبعد ذلك تصدى للتعليم فمسخ ما بقى له من صورة باهتة وأخضع التعليم الحر على ضعفه الى رقابة يرأسها أحد قواد جيشه كما أخذ يشجع المؤسسات الكنيسية ويعمل على نشرها في جميع أنحاء المنطقة ، وأعقب ذلك بسياسة بربرية رسمية حيث قسم المنطقة الى مقاطعات عربية وأخرى بربرية وأخضع الاخيرة للعرف الجاهلي ومنع سكانها من تعلم اللغة العربية !

ولقد طارد هذا الطاغية مدة حكمه رجال الوطنية وصادر صحفهم وأقفل أنديةهم وحرم عليهم الاجتماعات وفرض رقابة صارمة على البريد والمطبوعات ، ومنع السفر الى الخارج والتنقل في الداخل . وظل هذا السكابوس الثقيل جاثماً الى سنة ١٩٤٥ حيث بدل المندوب بأخر نتيجة للشكاوى والصراخ ولا سيما صراخ بعض رجال الحركة الوطنية الذين استطاعوا الافلات الى مصر ورفع أصواتهم الى العالم والى هيئة الامم ...

الظواهرات والضعف

وقد كان يظن أن اسبانيا ستقلع عن سياسة انطيمان بعد انهيار المحور، ولكن الحوادث خيبت هذا الظن حيث سار المندوب الجديد على منهج سلفه بل وزاد

ليه ، حيث سير في سياسة توسيع نطاق الهجرة ونزع ملكية الاراضي . وطرق الخليفة باب فرانكو فلم يقز بطائل ، وأخذ المنهج الجديد طريقه الى التنفيذ، فأخذ احرار المنطقة الذين هم في الخارج يثيرون الضجة في البلاد العربية واروقة الجامعة واوساط العالم العربي معاً فلبأت السلطات الى خطة الانتقام من الذين هم في منطقتها من رجال الحركة فأعلنت حالة الطوارئ والحصار وأخذت تطاردهم وتتهماً لضربهم الضربة القاضية . وفي ٢٨ آب من سنة ١٩٤٦ نظم حزب الاصلاح مظاهرات سلمية في مدن المنطقة بسبيل الاصلاحات العاجلة ، فكانت فرصة للتكبير اغتنامها السلطات وأخذت تشد بالقمع والقسوة فكانت اصطدامات عنيفة قتل وجرح فيها الكثيرون ، واحتج الخليفة وانذر بوخيم العاقبة . ولكن السلطات لم تعباً واستمرت في خطتها الباغية واخذت تدبر المؤامرات ضد الخليفة وزعماء الحركة .

وما يزال الموقف يسير في هذا السبيل المظلم الذي تسجل اسبانية الفرانكية به من العار ما سجله اصحاب العهود السابقة وما سجلته فرنسا ، وما هو موغل في الظلم والبيغى ايغالاً لا يكاد يصدق صدوره من اوحش الامم واقساها قلباً وتكشف زيف الدعاية المضلة عن فرانكو وعهده وحسن نياته نحو العرب .

قوة الحركة الوطنية وشمولها

نير ان هذا كله لم يثبت عزم المراكشيين حكومة وشعباً عن المقاومة وقد أصبحت الحركة الوطنية حركة شاملة يساهم فيها الجميع حتى الذين سبق لهم ان تعاونوا مع السلطات بحسن نية . وهي حركة منظمة تنظيماً دقيقاً هدفها استقلال البلاد ووحدةها والاتحاق بقافة الحركة العربية العامة التي أخذت تتسم بها بما ينشئه احرار الريف من الصلات بالحركة العربية المشرفية ورجالها ومنشأتها . ولقد اتقدت الشعلة فلن تنطفئ باذن الله حتى تدور على الباغي الدوائر .

وبما يجدر ذكره أن ملك مراكش وخليفته في منطقتي الاحتلال متضامنان مع الحركة الوطنية التي تهدف الى ذلك الهدف القومي ؛ وهذا مما يجعل الامل اقوى في الفوز .

خاتمة

- ١ -

صلة بغي فرنسا بالحركة العربية

وسبق البغي الافرنسي على المغرب العربي ليقظة الروح القومية ونشاط الحركة العربية الحديثة في المشرق العربي ، وخاصة في البلاد التي ظلت مرتبطة بالدولة العثمانية الى آخر الحرب العالمية الاولى قد يسوغ القول انه لم يكن مناوأة في أصله للحركة العربية التي سجلت بعثها العملي الجديد عقب اعلان الدستور العثماني ، وخاصة في بلاد الشام والعراق . غير ان المغرب العربي هو الساحة الطبيعية التي تكمل ساحة الحركة العربية على اعتبار امتداد الوطن العربي الكبير اليها على ما قلناه في مطلع الجزء الاول ، وأن من الطبيعي ان يعد كل عائق في سبيل تواصل هذه الساحة مناوأة لتلك الحركة من حيث المبدأ .

ولقد حرصت فرنسا اشد الحرص على بقاء المغرب معزولاً عن تيار هذه الحركة وضربت بينه وبين الشرق ستاراً حديدياً كثيفاً منعت النفوذ اليه او منه ، وخاصة بعد اليقظة القومية في الشرق وما كان بسببها من حركات وطنية ونضالية . ولم يقتصر هذا المنع على حركة دخول المغاربة الى الشرق ودخول المشاركة الى المغرب بل شمل كذلك مظاهر الحركة الفكرية والسياسية في الشرق من صحف وكتب ونشرات وإرتداد معاهد العلم الديني والمدني ، بل اقدم شمل الحج حيث لم يكن يسمح للمغاربة احياناً بأدائه ، وحينما كان يسمح لبعضهم كان محتاط لأن يكون المسموح لهم من الانصار والموالين وتحت اشراف ووظفين عرب مخلصين للسلطات الافرنسية فضلاً عن تقييد السماح بقيود مالية وغير مالية تجعله ضيق النطاق جداً . فكانت في ذلك مناوأة من حيث الواقع كذلك لتلك الحركة كما هو واضح ، هذا فضلاً عن ما في ما انتهجته فرنسا من نهج استعماري في التجويل والافقار والتنكيل والارهاب ومحاربة الثقافة العربية ومحاولة هدم الكيان القومي وتبديل وجه المغرب العربي ولسانه وكيانه من مناوأة للعروبة ومقوماتها على كل حال .

موقف فرنسا من قضايا العرب وحنه بالمغرب

ولقد كانت فرنسا في ما سارت عليه من خطط في سوريا ولبنان تفكر دائماً في المغرب العربي ودرجة تأثير خططها فيه سلباً وإيجاباً. وقد تكررت الاشارة إلى هذا على لسان رجال فرنسا قبل الحرب العالمية الاخيرة وفي اثناءها وبعدها انتهاها وخاصة في ظروف الازمات التي كانت تعصف في سوريا ولبنان ، كما كانت تنظر بنظر التجهم والغيظ الى ما اخذ يبدر من الحركات التجاوبية في بلاد المشرق العربي نحو المغرب العربي ، لما كان يتسرب مسن اخبار البغي والقمع والنضال في اقطار المغرب ثم لما كان من نشاط أحرار هذه الاقطار وحرركاتهم ودعوتهم على منابر المشرق العربي وفي أوساطه ومجالاته بعد الحرب ؛ حتى لقد وصل التجهم الافرنسي هذا الى ان جعل الحكومات الافرنسية والصحافة الافرنسية تقف مسن القضايا العربية موقف العداء والتعطيل ، وكان آخر موقف لها في هذا الباب موقفا من الحركة اليهودية ، ثم موقفا من قضية ليبيا ومناصرتها ايطاليا وحرصها على عودة سلطانها عليها ، وطمعها في قسمها الجنوبي فزان حرصاً على ابعاد عدوى الاستقلال والحرية عن المغرب ، مما يعد مظهراً طبيعياً لتيار الحركة العربية الحديثه وشموها العرب على اختلاف اقطارهم ، وبما يدخل موقف فرنسا منه في باب مناوأة الحركة العربية العامة بطبيعة الحال .

بطولة وصبر رجال الوطنيه المغربيين

وقصص تمكن احرار المغرب من اختراق ذلك الستار الحديدي ونشاطهم في الاوساط المشرقية والعالمية تنطوي في الحق على بطولة رائعة ؛ حيث كان منهم من يسير ماشياً عبر الصحراء المهلكة مئات الاميال معرضاً نفسه للملاك بالجوع والمرض والتعب والافتراس ، وقد كان بعضهم استطاع في اثناء احتلال تونس من قبل المحور ان ينتقل لأوروبا فكانت له الفرصة الذهبية للبقاء حراً خارج هذا الستار ، ولم يكونوا ذوي ثروة ولم يتمكنوا من جاب مال يساعدهم ، ولم يف المشرق العربي بواجبه في ذلك ، فصبروا صبر الابطال وفنوا في حركاتهم ونشاطهم القومي اعجب

الفناء وأروعه . وما كان من حركة دعائية نشيطة لفتت ابناء المشرق اكثر من ذي قبل الى المغرب وقضاياها بعد الحرب الاخيرة هو أثر مبارك من آثار حركة هذا العدد القليل الشجاع الصابر الزاهد الذي استطاع اختراق ذاك الستار الكثيف ويضاف الى هذا ما بدا من ثنايا هذه الحركة من فهم تام للحركة العربية الحديثة واندماج فيها ، وانتشار الشعور والوعي فيها بين المشتغلين بالحركة النضالية والوطنية في المغرب العربي سواء منهم من اخترق الستار او بقي في مبدات النضال والكفاح مما يدل عليه كثرة التردد والتجاوب في صدد هذه الحركة من مختلف الانحاء المغربية ورجالات المغرب عامة ، بحيث يصح ان يقال ان المغرب العربي هو داخل فعلا في نطاق هذه الحركة وأهدافها ، وان احراره ومناضليه ورجالاته ينشطون في هذا النطاق .

انقاء الحركة المغربية المغربية في ساحة واحدة

وهكذا يلتقي القائمون بالحركة القومية العربية في المشرق معهم في ساحة العمل القومي المشترك ، وتكمل حدود الساحة التي كانت مقسومة بالستار الحديدي الكثيف ، ونصبح الحركة العربية منتظمة نظريا وعمليا جميع ساحة الوطن العربي الكبير الممتدة من الخليج العربي وبحر الهند شرقاً الى مضيق جبل طارق والبحر الاطلانطي غرباً .

ومن الجدير بالذكر كظهر من مظاهر ذلك ما بدا من رجال الحركة القومية المغربية من اهتمام لحركة الجامعة العربية ورغبة ملحة باندماج المغرب العربي فيها منذ سير المشاورات الاولى بسبيلها حيث كانت البرقيات والعرائض تتوالى محتجة عاتبة ومعنة للرغبة في الاندماج في هذه الحركة اسوة بفلسطين ، بل لقد بدا ذلك الاهتمام وهذه الرغبة من رؤساء المغرب الأعلين فضلا عن كبار الزعماء ومختلف الهيئات ، ثم ما أخذ يتوالى على الجامعة بعد قيامها من مراجعات واقتراحات من هيئات المغرب ورجال حركتها بسبيل قضاياهم وتقارير تعويلهم عليها واعتبارها جامعتهم ايضاً . ولقد تجاوزت الجامعة معهم منذ البدء في ذلك نتيجة للشعور العربي الذي ينتظم رجال الجامعة وشعوب دولها بوحدة الحركة

العربية وشموها ، فأحتوى ميثاقها تسويغ اشتراك ممثلين للبلاد العربية الأخرى التي لم يكن في إمكانها التوقيع على الميثاق والاشتراك في الجامعة كدول ، وكانت المعنى به في هذا التسويغ المغرب العربي في الدرجة الأولى كما احتوى كذلك ملحقاً خاصاً كان المغرب العربي هو المعنى به أيضاً في الدرجة الأولى هذا نصه :

« نظراً لأن الدول المشتركة في الجامعة ستباشر في مجلسها وفي لجنتها شؤوناً يعود خيرها وأثرها على العالم العربي كله ولأن أمانى البلاد العربية غير المشتركة في المجلس ينبغي له ان يرعاها وان يعمل على تحقيقها فإن الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية توهي مجلس الجامعة عند النظر في اشراك تلك البلاد في اللجان المشار اليها في الميثاق بأن يذهب في التعاون معها الى أبعد مدى مستطاع وفيما عدا ذلك بالألا يدخر جهداً لتعرف حاجاتها وتفهم امانيتها وآمالها وان يعمل بعد ذلك على صلاح أحوالها وتأمين مستقبلها بكل ما تهيؤه الوسائل السياسية من أسباب . »

ثم أخذ هذا التجارب يشتد حتى لم تكد دورة من دورات مجلس الجامعة تخلو من بحث في القضايا المغربية وقرار قرارات ما في حدودها وإرسال المذكرات المتنوعة بسبيلها والوقوف موقف التأييد والاحتجاج والاستنكار والوساطة حيث اقتضى ذلك حتى غدت هذه القضايا من صميم أعمال الجامعة وامانتها العامة

- ٢ -

المؤتمر المغربي في القاهرة ومراه

ولقد طرأ عاملان مهان قوتيا حيوية ونشاط احرار المغرب ورجال حركته النضالية والوطنية . أولها المؤتمر المغربي الذي عقد في القاهرة في مطلع عام ١٩٤٧ ، فقد كان اجتمع في هذه العاصمة العربية الكبرى عدد غير يسير من احرار الأقطار المغربية الثلاثة ، ينتسبون الى مختلف الهيئات والاحزاب الوطنية فيها ، وكان رجال كل قطر يجاهدون وينشطون في سبيل قطرهم دون تضامن وثيق كشأن اخرانهم في المشرق مع اشتراكهم في بلاء واحد وعدو واحد . فرأوا انه قد آن لهم ان يشكوا جبهة واحدة للعمل التحريري داخل البلاد وخارجها ، فعمدوا مؤتمرا

المذكور الذي ضم مندوبي مختلف الأحزاب والهيئات الوطنية في الاقطار المغربية الثلاثة ، ورمزت حفلات افتتاحه وختامه الى ما قلناه من اندماج الحركة الوطنية التحريرية المغربية بالحركة الشرقية وانهيار السد القائم بين المغرب والشرق حيث دعي فريق كبير من رجال الاقطار العربية الشرقية لهاتين الحفلاتين وخطب بعضهم فيها منوهاً بالحركة المغربية التحريرية العربية والثقافتها في ساحة واحدة بالحركة الشرقية التحريرية ، وبالتواتق الذي يجب ان يسود رجال هذه الحركة في المشرق والمغرب لما تمثلانه من وحدة اللغة والتاريخ والعادات والتقاليد والروح والدين والمصالح المتنوعة والاتصال الارضي الذي لا يفصله فاصل طبيعي او عنصري على ما ذكرناه في مطلع الكتاب .

وكان من نتائج هذا المؤتمر ان تقرروا (اولاً) ميثاق سياسي قومي واحد يقوم على الاسس التالية :

١ - بطلان معاهدتي الحماية المفروضتين على تونس ومراكش وعدم الاعتراف بأي حق لفرنسا في الجزائر

٢ - مطالبة الحكومات المغربية والهيئات الوطنية باعلان استقلال البلاد .

٣ - المطالبة بجلاء القوات الأجنبية عن بلاد المغرب جميعها .

٤ - رفض الانضمام الى الاتحاد الافرنسي في اي شكل من أشكاله .

٥ - اعتبار ايام احتلال الجزائر (٥ حزيران) وفرض الحماية على تونس (١٢

مايس) وفرض الحماية على مراكش (٣٠ مارس) ايام حداد في اقطار المغرب .

٦ - تعزيز الكفاح بالداخل والخارج لتحقيق الاستقلال والجلاء .

وثانياً ميثاق تنسيقي واحد يقوم على الاسس التالية :

١ - ضرورة الاتفاق بين الاحزاب الوطنية داخل كل قطر اما باندماجها في حزب واحد او بتكوين جبهة وطنية منها .

٢ - إحكام الروابط بين الحركات الوطنية في الاقطار الثلاثة بحيث تهدف الى

الاتفاق على غاية واحدة هي الاستقلال التام والجلاء وتكوين لجنة دائمة من رجال

الحركات الوطنية مهمتها توحيد الخطط وتنسيق العمل للكفاح المشترك والعمل على

توحيد المنظمات العمالية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في الاقطار الثلاثة وتوجيهها

توجيهاً قومياً والوقوف جبهة واحدة عند حدوث أزمة في أي قطر منها .

و) ثالثاً) الطلب من الجامعة التي تمثل دور المشرق العربي :

١ - إعلان بطالات معاهدتي الحماية المفروضتين على تونس ومراكش وعدم شرعية احتلال الجزائر وتقرير استقلال هذه الاقطار وقبول ممثلين عنها في مجلس الجامعة .

٢ - عرض القضية المغربية على الهيئات الدولية واستعمال كل ما لدى الجامعة من وسائل لمساعدة اقطار المغرب على تحقيق ميثاقها .

٣ - ارسال لجنة تحقيق الى اقطار المغرب .

٤ - تعيين ممثلين للدول العربية المشرقية في اقطار المغرب العربي .

٥ - العمل على نشر الثقافة العربية في بلاد المغرب وحل مشكلة الطلاب المغاربة

الذين يلجأون الى المشرق بقصد اتمام دراستهم وتذليل العقبات التي تقوم بطريقهم .

و) رابعاً) تكوين مكتب واحد للحركة التحريرية المغربية يضم ممثلي مختلف

الأحزاب في اقطار المغرب الثلاثة يطلق عليه اسم «المكتب المغربي العربي» ويصدر

عنه كل نشاط وتوجيه واتصال وشكوى ومراجعات مما يتصل بالحركة الوطنية

النضالية في الاقطار المغربية .

وهكذا استطاع رجال الحركة القومية المغربية ان يقوموا بعمل لم يقم .

اخوانهم المشاركة ولو نظرياً حتى الذين كانوا امام عدو واحد كفلسطين والاردن

ومصر والعراق .

وقد ردد رجال الحركة الوطنية والاحزاب في داخل البلاد المغربية صدى هذه

القرارت وأبدوها وأظهروا استعدادهم للتضامن فيها . ومنذئذ اشتدت روح النضال

والحركة في مختلف الساحات بحيث صارت حركة التحرير المغربية قوية ملهوسة

الآثار في الأوساط العربية والعالمية على السواء .

زعامة الامير عبد الكريم

أما العامل الثاني فكان محور الامير عبد الكريم الخطابي بطل الريف الذي كان

في أسر فرنسا على ما اشرنا اليه في مناسبة سابقة . فقد توجه أحرار المغاربة اليه

ليتولى زعامة الجبهة النضالية الموحدة وقبل الرجاء فأصبح للحركة التحريرية المغربية

جبهة واحدة وزعامة واحدة ، واشتدت تلك الحركة قوة واتراً

المصاعب والآمال

ومع أننا لا نجعل عمق الروح الاستعمارية الباغية التي تسيطر على رجال فرنسا وساستها على اختلاف الواهم ، وما سوف نلقاه بالحركة التحريرية المغربية من المصاعب في سبيل تحقيق أهدافها وأهداف الحركة العربية التي عدت مندوحة في قافلتها ، سواء في احكام الستار الحديدي المصروب بين المغرب والمشرق أو في الاسراع في فرنسا المغرب ثقافياً وسياسياً حتى أصبحت نعمة الاتحاد الافرنسي المغربي تشتد ارتفاعاً وقوة وتخطو خطوة عملية بالنسبة للجزائر التي أدخلت في الحلف الاطلانطي كجزء انجادي من فرنسا ، أو في التوسع في أساليب الدس والتفرقة والقمع والتنكيل ومكابدة عرب المشرق في قضاياهم المعقدة . ومع أننا لسنا نجعل الى هذا ضعف البنية العربية عامة في المشرق والمغرب نتيجة لكابوس الجهل والتغلب والاستعمار الذي ظل جاثماً على صدرها امدأ طويلاً وما لهذا الضعف من آثار البهية سياسية وخلقية ووطنية واقتصادية والاجتماعية وشخصية وعامة في كيان العرب وحركتهم ، ولسنا نجعل أخيراً ما يحتاج اليه العمل التحريري المغربي من وسائل عظيمة ليس من السهل تداركها ، فان كل هذا لا يجعلنا نفقد الامل في نجاح الحركة التحريرية المغربية عامة ، ويجعلنا نعتقد انه ليس في وسع فرنسا معها بطشت وغدرت واجتالت ودست ووضعت العراقيل وسدت المنافذ ان تقضي عليها وتطفىء شعلتها المتقدة ، فهناك شعب ابي قوي المراس مستمسك بعروبتة وتقاليدده اشد الاستمساك يزيد عدده على العشرين مليوناً ، ومن ورائهم اخوان لهم يزيدون على الخمسين مليوناً لا بد من ان يتضامنوا معهم عاجلاً أو آجلاً في سبيل تحررهم وتحقيق اهداف الحركة العربية العامة في الجناح الغربي ، وليست السنين القليلة التي نرجو ان يتحقق هذا فيها بالشيء المهم في اعمار الامم وحركاتها النضالية القومية ، ولن يبقى القوى قوياً ، ولن يبقى الضعيف ضعيفاً . ولا تحسبن الله غافلاً عما يفعل الظالمون وسيعلمون اي منقلب ينقلبون .

وقعت بعض أعطاء مطبعة صحفنا بمضرا في مايلي
ونركنا بمضرا الى فطنة القارى



الصواب	الخطأ	السطر	الصحيفة
وتحولها	وتحولها	٧	٤٠
قطعية	قطعية	٢١	٦٦
البنية	النية	٢٥	٦٩
الوهن	الرهن	٧	٧٨
الافرنسية أمر أن تسلم	الافرنسية ان تسلم	٩	٨٣
تجربجية	تجربجية	٩	٩٥
يجنحوا	ينجحوا	١	٩٦
وبالتضامن مع لبنان الذي	وبالتضامن الذي	٢	١٠٨
هدوها	هددها	٦	١٠٩
ينتقل	ينقل	٦	١٣٥
فوراً	قراراً	١٣	١٤٢
وسط	وسطر	١٥	١٤٩
فيك يوم	فيك اليوم يوم	٧	١٥٧
الاهلون	الاهاون	٥	١٧٥
رسالة	سارلة	١	١٨٠
قضاة	قضاء	١٥	١٨٦
ضخمة	متخمة	٧	١٨٩
المصالي	الماصلي	١٤	٢٠١
جمهرة	جهرة	٢	٢٣٠